يهُـــوذا

الكتاب: يهُـــوذا
رواية
المؤلف: نبيه الإسكندراني
عدد الصفحات: 88
الرسمات الداخلية: الرسّامة
آية شناعة

الطبعة: الأولى – 2019
الناشر: دار النخبة 6 شارع رجاء عبدالرسول، المتفرع من شارع وادى النيل
أمام سور نادى الزمالك – 01288688875
E-mail: alnokhoba@gmail.com

يهُـــوذا

رواية

نبيه الإسكندراني

النخبة
للطباعة والنشر والتوزيع
2019

الإهداء

لصاحبة العينين اللّتين تُنِيران الدّرب في أشدّ أيامي حلكةً، فتسطّع بها ظُلُمات القلب المُتعَب،

لصاحبة ذاك القلب الّذي يتّسع في أكثر لحظاتي ضيقًا فيحتويني وهمومي،

إلى الّتي أنظر إليها، فأرى قبسات نورٍ ملائكية، قبساتٍ عُلوية من سارة والعذراء والزهراء..

إليكِ أمي..

المؤلف

المقدّمة

منذ نحو ألفي سنة، خان «يهوذا الاسخريوطي» كلمة الله...

ومن قبله ومن بعده، يخون الإنسان أخيه الإنسان وهذا طبعٌ في بعض البشر. بل إن الخائن يُبرّر لنفسه الخيانة في كلّ مرة، وكلّ مرةٍ تجري سواقي الألم تصبّ حزنًا في عيون الأرض، ويمضي الزّمن لِيَرث الجسّيس جسّيسًا آخر، فيظهر الاسخريوطي بلباسٍ آخر، وباسمٍ آخر، فيخون الإنسان أخيه الإنسان، وتعود الدائرة تصبّ ألمًا في قلوب أبرياء لا ذنب لهم سوى أنّهم فريسة الاسخريوطي، يقتات على ألامهم، وينتشي بمآسيهم!

1

«نهارٌ جميل، يشرق علينا بنورٍ من نوره، ما أجمل الأيام بصحبتكم أيّها الأصدقاء الصّادقين»... قالت شيرا متبسّمة.

«أصبتِ شيرا، تخيّلي كل هذا الجمال حولنا، وكلٌّ منّا في مكانٍ مختلفٍ، أقصد أنّنا لسنا سوّيًا».

أجاب زيدون وهو ينظر فرحًا إلى أصدقائه. ثم تابع «ما أجمل نوره، يشرق على الأرواح المحطّمة قبل أن يشرق على الأجساد المُتعبَة...» قبل أن يقاطعه «بافل» «أنظروا، أنظروا، لقد أتى الجدّ».

ينهض الثّلاثة من مجلسهم في مرج زهورٍ واسعٍ، يمتلئ خضرةً تحت سماء واسعةٍ ينيرها نورٌ عظيم. يتعجلون الخطى للجدّ، الّذي وبالرغم من اسمه، إلا أنّه لا يبدو عليه أنّه أكبر من بضعة وثلاثون عامًا، ولكنّ النّاظِرَ في عينيه يلمس وقارًا وحكمةً، وكأنّ الجدّ هذا يبلغ المئة أو المئتين من العمر.

يمضي بخطًى ثابتة ووقورة، يتعجل هو أيضًا إلى الثّلاثة المنتظرين قدومه على أحرّ من الجّمر. الثّلاثة أطفالٍ يبدو عليهم شوقهم من أميالٍ عديدة.

«مرحبًا بالجدّ، لقداشتقت إليك»... قال بافل وعينيّه الزرقاوين النّاظرتين إلى وجه الجدّ الأسمر تلمعان كزرقة السماء في يومٍ ربيعيٍّ في بعض الذكريات القديمة.

الجدّ ينظر في وجوه الثلاثة، يلمس مدى اشتياقهم إليه، لقد طال غيابه عنهم وقد أتوا اليوم إليه، يريدون أن يشاركوا معه قصّصهم.

قد يقول أحدهم، ما خطب كهلٍ يستمع لقصص ثلاثة أطفال لا يبلغ أحدهم أكثر من عقدٍ من العمر، ولكنّ الأطفال الثّلاثة، للواحد منهم قصّة لو رواها، لأشفقت منها السّماء، ولأدارت الشّمس وجهها وبكت، ولتصدّعت الجبال العظيمة، ولبقت قلوب البشر جبّارةً عنيدة.

«لنشكل حلقةً ونجلس هناك، بجانب النّهر الغريب هذا»... قالت شيرا ونظرت إلى صاحبيها.

«هذا النّهر وبالرّغم من لونه الغريب، إلّا أنه يذكّرني بنهر الثّلج في غرناطة. جميلٌ جدًا وساحرٌ جدًا»... قال زيدون.

«حسنًا، لنذهب، قد انتظرنا وقتًا طويلًا ليصل الجدّ. لا أريد أن أضيّع المزيد من الوقت»... قال بافل ومضى يمشي إلى جانب النّهر، ثم ما لبث أن لِحقَه الجدّ وشيرا وزيدون.

«حسنًا، ليمسك كلٌ منّا بيد من جنبه لنشكّل حلقةً ولنجلس هنا»... أضاف زيدون ثم أمسك بيد الجدّ باستعجالٍ يريد أن يجلس جنبه في هذه الحلقة.

يعني الكثير لطفلٍ أن يمسك يد مَن هو أكبر منه، يعطيه ذلك الأمان، أمانٌ طال انتظاره.

أووووه نسيت أن أخبركم، لقد مرّت سنينًا عجافًا على الأطفال الثّلاثة. يريدون هذا الأمان كي يرقوا بأحلامهم قليلًا، وكي يقودهم الأمان لبرّ الواقع ليعيشوا كما يجب.

الأطفال لا ييأسون من أحلامهم أبدًا، باستطاعة أيٍّ كان في العالم أن يخطف طفلًا من عالمه، أن يجرّده من أمه وأبيه، من واقعه، منزله، أرضه، وكل شيء، إلّا الأمل.

الأمل يسكن أرواح الأطفال كما تسكن فيهم أرواحهم. الأمل والرّوح لا ينفصلان عندهم، وذلك لأنّ الرّوح في الأطفال هي قبسٌ من روح الإله، تبعثهم على الأمل، وتبقي شعلة الحلم متّقدةً وإن في أحلك الظروف، وروح الإله لا تفنى، وأحلامهم لا تفنى!

«حسنًا، فلتسمك أنت بيد الجدّ، ولتمسك شيرا يده الأخرى، وأنا سوف أجلس مقابله. أحبّ النظر في عينيه»... قال بافل، يخفي بريقًا جميلًا في عينيه.

تبسّم الجدّ ونظر في عينيّ بافل. «جدّاه، كم اشتقت إليك، ما أنقى عينيّك وما أجمل روحك»... قال بافل ثم أضاف: «هلّا تدعوني أكون أول من يروي الحكاية للجدّ؟ أرجوكم أصدقائي».

«عادي، عادي، فلتبدأ، لدينا العمر بطوله»... قالت شيرا غامزةً الجدّ.

«إذن أصدقائي، فلتستمعوا إلى قصّتي»... قال بافل.

«كلّنا آذان صاغية»... قال شيرا وزيدون سوّيًا.

2

«لتكن مشيئتك كما في السّماء على الأرض، آتنا خبزنا كفاف يومـ...».

***

«الجسّيس، الجسّيس!»... صرخ أحدهم من الخارج.

«بافل، أسرع خذ الكتاب من فوق الطّاولة ودسّه خلف الموقدة. لا نريد منهم أن يجدوه»... قال رجلٌ أربعينيّ لبافل ثم تابع: «كاترينا، الحقي بأخيكِ واجلسا سويًا حول مائدة الطّعام مع أمّكما، وكلا طعامكما كالمعتاد، كأنّ شيئًا لم يكن.»

«حسنًا أبي»... قالا سويًا، وبسرعةٍ مضى بافل إلى المنضدة حيث الكتاب، أخذه وخبّأه خلف الموقد كما قال أبيه.

«تعالِ كاترينا، لقد أخفيت الكتاب، هيا لنذهب إلى طاولة الطّعام بجانب أمّنا»... قال بافل، ثمّ أمسك بيد كاترينا وتوجّها سويًا إلى أمّهما.

الأمّ ما زالت جالسة حول سفرة الطعام، تتلو الصلاة، وتنتظر أن يُقرع الباب بين فينةٍ وأخرى. الطّفلان يهرعان يجلسان على كرسيهما. الثّلاثة بانتظار أن يبدؤوا تناول العشاء. الأب ينتظر قرب النافذة، من خلف ستارةٍ قديمةٍ يترقب قدوم الجسّيس وأعوانه.

من بعيد، في الشّارع المقابل لبيتهم في «لينينغراد»، الجسّيس وأعوانه يمشون في الطّرقات، كأنّهم جيش نابليون المنتصر، يصرخون ويدخلون أحد البيوت، دخول الفاتحين. وما هي إلا بضعة دقائق حتى يعلو الصرّاخ من ذاك البيت.

الطّفلان يشعران بالخوف الشّديد، والأمّ برباطة جأشٍ تدعو طفليها لترتيل الصّلوات.

منذ أسبوعين تقريبًا، بدأت أجهزة الأمن حملةً على صعيد الأمّة السّوفييتية، للنّهوض بالمجتمع والفكر والحضارة، ومحاربة الخرافات والخزعبلات، خصوصًا تلك الّتي تسكن القلوب وتسكّنها.

ومنذ ذلك الوقت، كل ليلةٍ ينطلق الجسّيس وجيشه بين بيوت «لينينغراد» القديمة، يبحث في قلوب أهلها المساكين عن الإيمان. يريد أن يخلّص الأمّة من أفيون الشّعوب- هذا زعمه- فلقد اكتشف عظماء المفكّرين في الجمهورية العظمى أن القضاء على الدّين هو الحلّ الأمثل للنهوض بالمجتمع، ورُقيّه.

الجسّيس هذا، يعلم جيّدًا المنازل في «لينينغراد»، فهو ليس بغريبٍ عن هذه المدينة وأحيائها، لقد كان معروفًا جدًا في الأحياء:

«بزرييّني، الحقير»... هذا كان لقبه منذ زمنٍ بعيد في كلّ لينن غراد، وذلك بالطّبع قبل أن يتولّى مهمة الشّيطان في المدينة. ولّد ذلك اللّقب ضغطًا عظيمًا في نفس الجسّيس، فغدا يريد أن ينتقم من كل شيء في

عالمه، ربما حتى من خالقه، الّذي قدّر له أن يكون في بيتٍ تعيسٍ، ولكنّه بالأصل لا يؤمن بخالق، هي الطبيعة إذن، هو هذا الكون الأخرق.

لقد لام الكون كلّه للمشاكل الّتي واجهته أثناء طفولته... أبٌ سكّير أحمق، لا تمرُّ ليلةً إلا ويوجه إهانات لزوجته، إهاناتٌ قد ترقى لمستوى الاعتداء الجسدي لاحقًا. الوضع الاقتصادي لم يكن جيّدًا. القليلون جدًا هم القادرون على الحصول على ما يكفيهم، في ظلّ الحروب والمشاكل الكثيرة.

الأب ينتقم على طريقته، ينتقم من الأضعف منه، من زوجته. والأضعف منهما، الجسّيس، يشاهد ذلك كلّ ليلةٍ، فيهرب في شوارع «لينينغراد» من تلك الأحداث، بثيابٍ رثةٍ وحذاءٍ قديم، ينام في طرقاتها، مشرّدًا.

ولكنّ مع نضوج الجسّيس، ونموّه اتخذ إجراءً صارمًا، فكمن لأبيه في أحد الأيّام وأرداه قتيلًا. شفع له الانتماء إلى شبيبة الثّورة المظفّرة، وادّعى أن أباه كان يقف عائقًا في مشاريعه الفكريّة، فنجى من العقاب. كلّ «لينينغراد» تعلم القصّة.

ومع الوقت، عرفه أهل «لينينغراد» جيّدًا وعرفهم هو أيضًا، وسرعان ما انضمَّ إلى القوى الأمنية في المدينة، المناضلين الجدد، ولينشأ لنفسه حيثيّةً بين أقرانه في الجهاز الأمني، ويثبت أنّه الأفضل كان عليه أن يتسلّق ويتملّق، حتّى رقّي نهايةً إلى مرتبة الجسّيس، حقيرٌ رسميّ.

كلّما يدخل حيًا في المدينة، يهرع السّكان إلى النّوافذ ينتظرون دورهم في التّفتيش. لا يتدخّل أحدٌ بالآخر، مهما يحدث، أقلّها حتى خروج الجسّيس وأعوانه. لا يريد أحدٌ منهم أن يجلب الموت لنفسه، التّهمة جاهزة، يلبسها أيّ كان. هذه حقيقة في الجمهورية، ولهم في الجسّيس قاتل أبيه خير مثال.

«بوف بوف بوف»... قرعٌ شديدٌ على الباب أيقظ الأحلام النّائمة في الألباب.

«افتحوا الباب قبل أن نخلعه عليكم، بأمرٍ من جمهورية الشّعب العظمى»... قال أحدهم من خلف الباب.

تقدّم الأب إلى الباب ثم فتحه، وما إن خرج نور السّراج الموضوع على الطّاولة في الدّاخل إلى الخارج من شقّ الباب، حتى دلف الأعوان وأعينهم تجول تبحث في المكان عن بقايا إيمانٍ أو ربما دعاءٍ مختفٍ بين جدران المنزل الصغير.

«هات الكتاب يا هذا»... قال أحد الأعوان بصوتٍ مرتفعٍ.

«أيّ كتابٍ تقصد سيّدي؟»... أجاب الأب مستفسرًا.

«ليس لدينا وقتٌ لألاعيبك السّخيفة، نريد أن ننتهي من عملنا ونرجع إلى بيوتنا قبل انتصاف اللّيل. نريد أن نسهر سهرةً جميلة مع الرفاق، ولا أريد من أحدٍ أن يفسد عليّنا ليلتنا، فاجلب الكتاب بالحسنى»... قال نفس الرّجل.

«سيّدي، أقسم لك أنّني لا أعلم عمّا تتكلم، وهذا بيتي كلّه بإمرتكم، فابحثوا إن شئتم!»... أجاب الأب ناظرًا نظرة شفقةٍ إلى الجسّيس بينهم.

الجسّيس يقف في الخلف بين أعوانه، يراقب جيدًا. هذا عمله في الأصل. يبحث بين ذرّات الهواء عن طيف خيانة، ويقلّب بصره بين أهل المنزل، يحلّل النّظرات، حركات الشّفاه، جري الدّماء في العروق، ويستمع بأذن خبيرٍ إلى النّبضات الّتي في الصّدور. ثوانٍ قليلة ثم يهدر صوته.

«أين الكتاب؟»... صرخ الجسّيس صرخةً ارتجّت لها أركان المنزل. يلتفت إلى نظرات كاترينا الّتي تنظر إلى أخاها ثمّ إلى الموقدة. «للمرّة الثّانية والأخيرة، أسألك أين الكتاب؟»... أضاف الجسّيس: لا يريد من الأب أن يدلّه على مكان الكتاب، هو يسأل لأنّه يريد فقط أن ينظر مجدّدًا إلى عيون الطّفلين، يعلم أنّهما خائفين، وسوف ترشده النّظرات إلى مكان الكتاب.

«سيّدي، بحق الله لا أعرف عمّا تتكلم»... قال الأب.

«يا أعوان، أمسكوا بهذا الرّجل!»... قال الجسّيس.

انقضّ الأعـوان على الأب انقضاض أسود غابٍ على فريسةٍ مسكينة، أمسكوا يديه، وانهالوا عليه ضربًا أمام عائلته الّتي لا تقوَ على شيء. الأب في خضمِّ ذلك ثابتٌ أشمٌ كسنديانةٍ خالدةٍ يمنعها كبرياؤها من الوقوع أرضًا رغم شدّة الريح.

يقترب الجسّيس من الأب ويركله على قدميه في محاولةٍ منه لإسقاطه على الأرض. الأم وكاترينا ينظران إلى الأب والدموع تملأ عينيهما لحجم الذلّ والإهانة الّتي يتلقّاها الأب، وهو يحاول أن يشيح ينظره عنهما، لا يريد منهما أن تراياه بهذا الضّعف.

الجسّيس ينظر إليهم وعيونه تمتلئ حقدًا أسودًا، وكأنّه يرى فيهم ماضيه الحقير، فتكبر أفعى الانتقام في صدره. كيف تكون لهم عائلةٌ طبيعيةٌ وهو كان يعاني الأمرّين من أبٍ أذاقه وأمَّه الويل والبأس والذّل. الكون الحقير المتآمر. لقد حان الوقت كي ينتقم الـ «بزرينّي» من السّعداء وكأنّه هو ذنبهم أن أبيه كان حقيرًا أشرّ.

«اركع أيّها النّكرة، يا عبد الأساطير!»... صرخ الجسّيس لاطمًا الأب مرةً أخرى فارتعدت فرائص من في البيت، فصرخت الأم ثمّ سقطت مغشيًا عليها.

كاترينا ترتجّ ثم تحرّك عينيها في فضاء البيت الصغير تبحث عن أمانٍ مفقود لقلبها الصغير المتألّم، ومن بعيد يراقب بافل. يريد أن يدفع

الأعوان عن أبيه بأيّ ثمن. يقترب منه في خضم الأحداث، يحاول ذلك، يصرخ في الأعوان الّذين يفوقونه حجمًا وعمرًا، فينظرون إليه ويسخرون منه.

«ادفع ذاك القبيح من هنا»... قال أحد الأعوان، فتقدم آخر موجهًا ركلةً إلى بافل على صدره تسقطه أرضًا جنب الموقدة.

الجسّيس يضحك، يتوجه إلى الموقدة، ويدوس بقوةٍ على صدر الطّفل الممدّد على الأرض، مخرجًا حقارةً لم يسبقه عليها أحد.

لقد رأى الجسّيس كيف أنَّ نظرات الطفلين كان تشيح إلى الموقدة كلّما ذكر الكتاب أو سأل عنه فعلم أنّ الكتاب لا بدّ أن يكون في مكانٍ قريبٌ من تلك الموقدة. يقترب منها، والفوضى خلفه، الأعوان يركلون الأبّ، والأمّ مغشيًا عليها، وبافل يتألّم من شدّة الركلة، وكاترينا، الطفلة الصغيرة، تنازع الواقع، فما تلبث تنظر في فضاء الغرفة، تبحث عن أمانٍ أو ربما معجزةٍ تخلّصها من براثن الأحداث الّتي تعصف بمن حولها. الجيران في الخارج يراقبون الوضع بدقّة، من خلف النوافذ، كما كان الأب يراقب منذ قليل.

«ها هو، هههه، يا نكرة تخبئ الكتاب خلف الموقدة! لا شيء يخفى عليّ! هههه»... قال الجسّيس ضاحكًا ينظر في عيون الأب المهزوم وكأنّه انتصر في كبرى معارك الأمّة. نعم، لقد انتصر، لقد وجد

الكتاب، ولعلّ هذا الانتصار يضاهي في نظره عظمة انتصار المعلمّ الأوّل على آخر القياصرة في الثّورة البلشفيّة العظيمة.

يتمختر الجسّيس بين الأعوان ممسكًا الكتاب في يده.

«أهذا ما تخبئّه عنّا! نحن القادرين على إخراج الأسرار الّتي في الصدور، القادرين على إمساك الدعاء في طريقه إلى السّماء! نادِ إلهك يا نكرة، قم ناده، هيا نادِهم كلّهم، أخبرهم عنّي، أخبرهم أنّه لن يكون إيمانٌ في لينينغراد بعد اليوم!»... يصرخ الجسّيس صراخًا يتبعه الأعوان صراخًا متزلزلًا ثم يخرجون الواحد تلوى الآخر من البيت، منتشين بالنّصر العظيم في المعركة الحاسمة مع أبٍ وأمٍ وطفلين.

الأم تنهض تلملم بقايا الكرامة. الأب يئنّ من الضرب الشّديد الّذي تعرض له مستلقيًا مكانه. كاترينا تائهة في فضائها الخاص تبحث عن طريقةٍ لتنسى ما قد حصل، أمّا بافل فلا يزال أرضًا، مغشيًا عليه من شدّة الركلة وما تلاها. الجيران يتوافدون فورًا كالعادة بعد كلّ غزوةٍ من غزوات حقير لينينغراد.

«بافل.. بافل»... يئن صوت أمّه، تحرك بافل بيدها. تسمع كاترينا صوت أمّها، يعود لها قليل من إحساسٍ بالأمان، تمضي إليها بخطواتٍ صغيرةٍ تشبهها، وهي الصّغيرة المدلّلة الّتي اعتادت ألّا ترى من هذه الدنيا إلا بسمة والديها. تضع يديها على أخيها، فيغمر بافل إحساسٌ جميلٌ. تقترب الأم منهما، تنظر إلى بافل ثم تمسك يده الأخرى فتدخل

بين ثنايات روحه مشاعر أمّه، وما أصدق على الأرض من مشاعر الأم؟ تتحلّل هذه المشاعر في دمه، تمسك بأطراف روحه الّتي تنازع للبقاء في الجسد المحطّم، وكأن مشاعر أمّه، وأمّه أدركوا أنّ خطبًا ما قد حلّ. الجيران يهرعون بالطبيب الّذي لا يسكن بعيدًا من بيتهم.

«بافل... بافل.. انظر في عينيّ يا دمي»... قالت الأمّ بصوت قويٍ أشعل شعلة الحياة مجدّدًا في قلب بافل المنازع.

قوة مشاعرها، وقوة روحها، وقوة نفسها، كلّها مستمدّة من صدقها وطهارتها. فرغم كلّ الضّعف والانكسار فهي قويّةٌ بنفسها وعزيمتها.

يفتح بافل عينيّه ثم ينظر في عينيّ أمّه. كان يحبّ هذه العينيّن الزرقاوين، وكان يطيل النّظر فيهما، هما كونه الفسيح في بيته الصّغير. عيناها تحملان في مقلتيهما سحرًا غامضًا، وأملًا واعدًا، ومحبّةً صادقةً تصل روحيهما.

«أمّاه، إني أتألم»... خرجت الكلمات بصعوبةٍ من فم بافل. شدّت أمّه عرى روحها، ثم ازدادت عزيمةً إلى عزيمتها، فأضحت جبلًا من صبرٍ رابضٍ فوق مشاعر حزنٍ عميقة بعمق الرّوح، وقويةً كسندان حدّادٍ يضرب بقوةٍ فيتطاير منه شررًا عظيمًا، ولا يتحطّم.

«بنيّ، أنت بخير، ألست بين يديّ «مايا ماما». لا تخف»... قالت أمّه وهي تدرك قلّة قدرتها في أن تفعل شيئًا لبافل أمامها.

«وصل الطبيب»... قال أحد الجيران وتابع، «أفسحوا له المجال، بسرعة».

دخل الطبيب لا يدري بأيٍّ يبدأ. الأب ملقى يتألم، وبافل أمامه.

«بافل، رجاءً، أيّها الطبيب»... قال الأب وقد شقّ عينيه بصعوبةٍ بالغةٍ.

«بافل هناك، جنب الموقدة»... قالت كاترينا.

يهرع الطبيب إليه، إلى الطّفل البريء، ثمّ يضع السّماعة الطبّية على صدره، يستمع جيّدًا، فترتسم علامات اليأس والغضب على وجهه. ينظر إلى الأمّ الّتي تدرك مغزى نظرته اليائسة. يمسك بيد الأم المصابة بأقسى ما يصاب به أحد، ثمّ ينظر إلى وجه بافل، المتألّم. ينادي أحد الجيران، يهمس له بالمصيبة القادمة، فيهرع للإتيان بالقسّيس.

«سيّدي، سيّدي، أمّي! أمّي»... قالت كاترينا.

نظر الطّبيب إلى الأمّ فوجدها سقطت أرضًـا. أمسك مجدّدا بسمّاعته، ولكن لحسن حظّه فإن أداته هذه ليس بإمكانها ولوج عالم المشاعر في القلب، لأنّها لو كانت قادرة، لكان صَمّت أذنا الطّبيب، ولكان صُرِعَ من شدّة العاصفة الكونيّة الدّائرة في صدر الأمّ. عاصفةٌ عاتيةٌ، تهتزّ لها أركان الكون، وتتصدّع بسببها أرجاؤه. أداته قادرةٌ فقط على نقل صوت القلوب، ولكن ليس على نقل مشاعرها.

«هي بخير، أعطوها وقتًا، واجلبوا لها بعض الماء»... قال الطبيب للجيران حوله.

«القسيس هنا!»... قال أحد الجيران.

لقد كان لهذا الحيّ المتواضع في مدينة «لينينغراد» كنسيةً متواضعةً، ولكنّ التّغييرات الجديدة في سياسة الدولة أتت على هذه الكنيسة، فحولتها إلى مركزٍ لنشر أفكار الثّورة بين جيل الشّباب، فغدا القسّيس بلا عملٍ يُذكَر، اللّهمّ إلّا مباركةَ بعض الزّيجات والحضور في المآتم.

«أبانا، إنّ بافل يحتضر!»... قالت الأمّ بصوتٍ يتشقّق منه الحزن، حزنًا كحزن يعقوب يوم ابيضت عيناه فهو كظيم.

نظر القسّيس في عينيّ الأم، وفي وجه الطبيب، وتمنّى ولو لثانية أن يمتلك قدرة القدير فيبعث بافل حيًا، ولو أدى ذلك لقتله، ولكنّها الأقدار تدركهما، ومن يملك نفسه في حضرة القدر.

أمسك القسّيس بيد الأم فشعر بتدفّق المشاعر بين أناملها ثم قال بغصةٍ: «فليبارك الرّب روحك أيّتها الأم، إني أرى في روحك قبسات من روح الأم المقدسة المباركة»... ثمّ صمت.

لم يكن الكلام لينفع الآن في حضرة الموت الذي تنزّل من السّماء ليخطف طفلًا رقيقًا تماثل رقّته رقة بتلات أقحوانةٍ فوق أرض الرّبيع. بافل أرضًا لم يزل ينازع السّكرات، والقسّيس فوقه، يراقب شعل الإيمان المتّقدة في قلبه.

«كوني قويّة، كوني قويّة»... قال للأم ثم نظر إلى بعض الجيران المتجمهرين بأعينٍ مفتوحةٍ في هذا المصاب الجلل وقال: «أحضروا أبيه حالًا إلى جانبه».

يعلم القسّيس أنّ بافل قد أوشك على الفراق. يحضر بعضٌ من الجيران الأبّ المتألّم، يحملونه حملًا. غدا ثقيلًا بكلّ هذا الهمّ الرابض على صدره. يتألم كثيرًا في الداخل، وتكاد روحه أن تصرخ فيسمعها أهل السّماء، فأيّ ألمٍ أشّد على الأبِ من فراق فلذة كبده وصارمه الّذي أعدّه للأيام. يحملونه جميعًا، ينظر من عينين متورمتين إليهم، ثمّ إليه، فلا يرى إلا قبسًا من نور يخرج من صدر بافل الملقى على الأرض.

«دعوني، ودعوه، إنّكم لا ترون ما أرى. دعوني ودعوه!!»... يصرخ الأب بصوتٍ أشّد ما يشبه عويل ثكلى أو أرملةٍ عند الفقد. ينهض القسّيس من جنب بافل، يقف ثم يطأطئ رأسه، يريد أن يشهر احترامه للرّوح السّامية الّتي تصّعد من الجسد الطّاهر، للروح الّتي كان نصيبها أن تغادر لأجل حقارة رجلٍ ساذج، لأجل قرارٍ اتخذه أحمق، لأجل إيمانٍ في قلوب مساكين لينينغراد.

ينظر القسّيس مجدّدًا ثم يقول:

«بوركت الرّوح السّامية، وبورك حاملها، وبورك أهله والحاضرين، وبورك الحي الوضيع، والمدينة الحقيرة الّتي لم تقدّر نعمة الله. فليسامح الرّب مفتعل الخطيئة. هو ذا الآن وقت مقبول هو ذا الآن يوم خلاص»... ثم نظر لمن حوله فرأى الدمع يتساقط من العيون كتساقط الخطايا عند غفران الرّب. الدّمع يتساقط منهم وكأنّهم قد رأوا الخلاص أو المخلّص، فيتابع:

«ألا يا بافل، فارحل إلى الأبدية، بعيدًا عن عالمنا التّعيس، ألا يا بافل ليصحبك المبارك أبرام الكريم، فلتسمك بيدك الكتاب المقدّس، ولأخرى يده، وليصحبك المعظّم اسمه بين الأمم».

تلتفت الأمّ بعيدًا، يشوح نظرها في فضاء الغرفة، فتنظر كاترينا كما أمّها، والأب يتنهدّ وبافل الّذي يشدّ يديّه على يدّ أمّه يودّها بطريقته ليرى الأبدية، ثم يفتح كلتا يديه وكأنّه يسلّم الجسد الطّاهر قبل أن يسلّم الرّوح المقاتلة.

الأم تحسّ بذلك، تقاتل، فتزيد من الشّد على يديّ بافل، ثم تنظر إليه مجدّدًا فيبستم لها، ثم...

***

«أنا هنا، هذه قصتي، دَور مَن الآن فيكم، شيرا، أم زيدون».

تسقط دمعةً من عيني الجدّ.

«كم تشبهنا تلك القصّة!»... قال زيدون، ثم نظر في عيني الجدّ الجالس بينهم وتابع: «تشبه كلّ تفصيلٍ يكمن في كلّ قصة تنتهي هنا».

«حاقدون على الإيمان، أعرفهم جيّدًا، أباليس مُقَنّعة بوجوهٍ بشريّة»... قالت شيرا.

«آه، هذا أمرٌ وانتهى! ما يسرّني أنّي اليوم هنا، معكم. أنسَتْني اللّحظة الأولى حين رأيتكم كل عذابٍ تعذبت من قبل، وحين رأيت الجدّ أحسست أنني لم ألبث قبلُ إلّا بضع دقائق في لينينغراد. الجلوس معه، والنّظر في عينيه كافٍ على أن يبعث الفرحة في قلبي، ويقضي على بذور البؤس المتناثرة في الروح»... قال بافل مبتسّمًا.

«أيام تمضي، تجري تمامًا كهذا النّهر الغريب، ولكنّي لا أعلم لِمَ أشعر أنّ الأيّام توقّفت هنا، ولم كفّت الأزمان عن الجري كالعادة»... قال زيدون.

«حسنًا، أنا أحسست بذلك، ولكنّي لم أشأ أن أخبركم بهذا. قلت لنفسي ربما هي نقاوة المكان تدفعني للإحساس بهذا. أنتم لا تعلمون

كَم كان مكانًا قبيحًا حيث أتيت. جدرانٌ عالية، أنوارٌ خافتة، بنادق في كل مكان، ووحوشٌ وألسنة لهب. أرتعب في كلّ لحظةٍ أتذكرها»... قالت شيرا بصوتٍ حزين ومضطّرب.

«ترتعبين! كل هذا خلفك أيّتها الأميرة الصغيرة!»... قال بافل غامزًا الجدَ وتابع: «أليس كذلك أيّها الجدّ؟».

تبسّم الجدّ وقد مسح دمعته عن وجهه ثمّ شدّ قبضتيه على يد كلّ من شيرا وزيدون، الّذين بدورهما تبسّما ونظرا في عيني الجدّ حيث تسكن الرسالة، وحيث تسكن الطمأنينة والأمان.

«لقد حان دوري إذن. زيدون لو شئت فأروِ أنت أولًا»... قالت شيرا.

«لسنا في عجلة شيرا، شوقتني بحديثك لأعرف أكثر عن قصّتك»... أجاب زيدون.

3

«اسمع يا إسرائيل الرّب إلهنا رب واحد، فتحبُّ إلهك من كل قلبك، ومن كل نفسك ومن كل قوّتك، ولتكن هذه الكلمات الّتي أوصيك بها اليوم على قلبك، وقصّها على أولادك وتكلّم بها حين تجلس في بيتك، حين تمشي في الطّريق، وحين تنام وحين تقوم، واربطها علامة على يدك، ولتكن عصائب بين عينيك. اكتبها على قوائم أبواب بيتك وعلى أبوابك»...

تُصَلّي سارة خاشعةً، وطفلتيها شيرا وإليانا حولها تستمعان.

«هيّا يا بنات، نهارٌ جديدٌ، استبشرا بالخير»... قالت سارة.

«حسنًا أمي»... قالت شيرا وإليانا سويًا.

«وكما أخبرتكنّ، لا أريد أيّ ضوضاء هنا، لا أريد من أيّ أحدٍ أن يعرف أنّنا نبيت هنا»... أضافت الأم.

«حسنًا أمي، ولكنّ أمّاه متى يعود أبي؟»... قالت إليانا بغصّة. هي تكره المكان الّذي تقطن فيه وقد فرضت على عائلتها الظروف الاختباء.

«أعطوه بعض الوقت، فمهما طالت المدّة سيتدبّر أمره ويعود، بالتأكيد، أعلم هذا»... قالت سارة لابنتيها.

الأيام غدت صعبة، والحصار يضيق يومًا بعد يومٍ على شعب سارة.

«مانهايم» لم تعد آمنة لأحدٍ منهم. الحيّ اليهودي والقاطنين فيه يذلّون بأبشع الطرق من قبل قطعان النازيّين المارقين.

حكومة الرّايخ الألماني الأعظم أصدرت قرارًا بإجلاء اليهود من بيوتهم إلى المعسكرات خارج المدن، وذلك لإعادة توطينهم في أماكن أخرى لاحقًا حسب ما ادعت. القليل فقط استطاعوا أن يختبؤوا في بعض السّراديب أو الأقبية هنا وهناك.

«أمي، مللت البقاء هنا. المكان مُظلِمٌ جدًا»... قالت شيرا، وهي الصّغيرة الّتي اعتادت على اللّعب خارجًا لأوقاتٍ طويلة، بين شجيرات زرَعَها جدّها في حديقته المتواضعة، تلاحق فراشاتٍ صغيرةٍ تطير حول تلك الحديقة.

اليوم شيرا تلاحق ظلال أمها وأختها بين جدران قبوٍ ينيره قنديلٌ صغير. لا يستطيعون الخروج أبدًا. الخروج يعني الالتحاق بالشعبّ اليّهودي على متن القطارات باتجاه معسكراتٍ مُشَيّدة في بولندا المحتلّة.

«عليكِ أن تصبري حبيبتي شيرا. ألم يعدك أبوك أن يأتي لاحقًا ويأخذك من هنا إلى حيث تستطيعين اللّعب طوال اليوم؟»... قالت

الأم ثم نظرت إلى ابنتها وتابعت: «علينا فقط أن نصبر. لنتمثّل بصبر شعبنا حين حفظت صدورنا الإيمان في السّبي البابليّ».

«ولكن أمّي، أنا أشتاق لضوء الشّمس، أشتاق لأن أخرج قليلًا»... قالت شيرا، قبل أن تقاطعها إليانا الّتي تكبرها بعامين: «شيرا، لا يوجد في الخارج إلا الدّمار والموت. لقد انتهى العالم كما تعرفينه».

«لا أصدّق كلامك إليانا. سوف ترين عندما يأتي أبي ويخرجنا، سوف ترين!»... قالت شيرا بصوت يمتلئ تحدّيًا متمسّكًا بالأمل. الأمل الّذي لا تقدر كل بنادق النّازية على قتله في صدور الأطفال.

«يا بنات، رويدكن. اللّيلة سوف أخرج قليلًا لأحضر بعض المستلزمات من الخارج، وأريدكما أن تحافظا على الهدوء خلال هذا اليوم»... قلت سارة لابنتيها.

تمر السّاعات في القبو كالسنين. الفتاتان تشعران أن القبو لا يحبس جسديهما فقط، بل هو قادرٌ على حبس روحيهما أيضًا. حبس الرّوح أشدُّ من حبس الجسد، فحبس روح المرء أشدُّ تقييدًا من حبس جسده. حبس الأجساد يكون بوضع المرء في قيودٍ أو ربما جعله حبيس جدرانٍ أربع، ولكنَّ حبس الرُّوح يكون بالقيود الوهمية الّتي يفرضها صاحب القوة على أحدهم فيمتلكه بالخوف والرّعب، وهو حرُّ الإرادة، حرُّ الجسد.

حكومة الرّايخ وأوباشها فرضوا الخوف والذلّ والخنوع على الشعب اليهوديّ واضطهدوه بأسوأ الطّرق. أجبروه على ترك أرض أجداده إلى معسكرات الاعتقال المنتشرة في أرجاء أوروبا. قيد الرّوح أشدُّ على الشّعوب من القيود الحسّية، ولذا نجح الأوباش في مهمّتهم، وانتزعوا أرضهم منهم وانتزعوا أيضًا حسّ المقاومة.

تَمُرّ تلك السّاعات القبيحة، وسارة تقوم بتوضيب بضع أكياسٍ لرحلتها القصيرة. تريد أن تأتي بأكبر قدرٍ من المستلزمات بعد أن أوشكت المؤونة الحالية على النّفاذ.

الحكمة تقتضي أن تذهب سارة تبحث عن بعض الطّعام في الأماكن القريبة من القبو، وأن تبقى الفتاتان داخله تنتظران أمهما كما انتظرت أمهما يومًا أبيهما حين رحل قبل أكثر من أسبوعين يبحث لهما عن بعضٍ من المؤونة، ولكنّ المحزن أن المؤونة لم تأتِ ولا الأب أيضًا. سارة أكثر حرصًا الآن، تخرج في اللّيل، لا ترتدي قماشة الذرّاع ذات النّجمة الّتي فرضتها الحكومة النّازية على اليهود.

«لقد حان الوقت. شيرا. إليانا، الرّجاء حافِظَا على الهدوء ريثما أعود. لا تخرجا من القبو مهما كان السّبب. أغلقاه جيّدًا ولا تفتحا أبدًا إلا حين أطرق الباب أربع طرقاتٍ بالعدد»... قالت سارة، ثم توجهت إلى باب القبو وخرجت مسرعةً تحت جُنحِ الظّلام. الفتاتان أغلقتا البّاب وجلستا بجانبه تنتظران بكلّ لهفة عودة أمّهما سارة من الخارج.

«بوف، بوف، بوف»... أصوات قرعٍ على الباب تسمعها شيرا. غلبها النّعاس ليلة أمسٍ وهي جالسةٌ تنتظر أمّها بجانب الباب. تحاول أن تفتح عينيها، تحكّهم قليلًا، تلفت يمينًا ويسارًا. ترى أختها ممدّدةٌ جنب الباب، كيف لَم تسمع صوت القرع على الباب بالرّغم من شدّته. تقترب منها.

«إليانا، إليانا، استيقظي، لقد سمعت قرعًا على الباب»... همست شيرا لأختها.

«أي قرعٍ، لم أسمع شيئًا!»... قال إليانا وهي تنظر باستغرابٍ إلى شيرا: «لو كان قرعًا على الباب، لكنت استيقظت، ولو كانت أمّنا لكانت قرعت مجدّدًا، قالت أمّنا أنها ستقرع الباب أربع مرّاتٍ»... تابعت إليانا.

«ولكنّي متأكّدة»... قالت شيرا قبل أن تقاطعها إليانا: «شيرا، لا داعي للخوف حبيبتي، خذي قِسطًا من الرّاحة وتابعي نومك، ماما ستعود قريبًا»... قالت إليانا لها.

«حسنًا أختاه»... قالت شيرا ثم جلست مكانها تفكّر فيما جرى.

«لم يكن قرعًا للباب شيرا!»... قال صوتٌ ذكوريٌّ، سمعته شيرا واضحًا وأدركت أنّ هذا الصّوت ليس من الخارج، فارتعدت فرائصها، وبدأت يداها تهتزّ من شدّة الخوف.

«لا تخافي ابنتي، أرسلني أبوكِ إليك كي أعتني بـك!»... قال الصّوت مُجدّدًا.

«أبي، أبي!»... صرخت شيرا وهي تنظر يمينًا ويسارًا في القبو الصغير. الصراخ العالي أيقظ إليانا مجدّدًا.

«شيرا، شيرا، اخفضي صوتك! سوف يسمعونك الآن! افعلي كما أمرت أمّنا، لا نريد منهم أن يعلموا أنّنا نبيت هنا!»... قالت إليانا وقد جلست بقرب شيرا، أمسكت يدها وطمأنتها: «تعرفين حبيبتي، قد تستغرق ماما سارة بعض الوقت في العودة للقبو. علينا أن ننتظر قليلًا فقط».

«أمي ستعود إليانا؟»... سألت شيرا وفي عينيها يسكن جواب سؤالها.

«نعم، نعم، أخبرتنا أنّها ستعود مع الصباح»... أجابت اليانا.

هدأ رَوع شيرا قليلًا وقد أحسّت مجدّدًا بالأمان حل عليها. يصعب على الأطفال أن يتحملوا كلّ هذه الظروف المستحيلة، ولكنّهم لا ييأسون، روحهم دائمًا متّقدة بالأمل، تحمل أحلامًا جميلةً بغدٍ مشرقٍ.

تَمُّر السّاعة تلو السّاعة، والفتاتان في القبوّ ينفذان تعاليم سارة بحذافيرها. سارة أخبرتهما أنّه في حال تأخرها فقد قسَّمت الطّعام المتبقّي لثلاث أيّام، وفي حال أنّها لم ترجع في اليوم الثّاني، فعلى الفتاتين الذَهاب بكلِّ حذرٍ إلى «بنيامين»، وهو صديقٌ للعائلة يعمل

مع النازيّين وقد سمح له بالبقاء داخل «مانهايم» لقاء عمله. حماه ذلك العمل لفترةٍ طويلة خلال الحرب.

«لم تعدُّ أمّك بعد!»... قال الصّوت مجدّدًا. «عليكم بالذهاب اليوم إلى بنيامين» أضاف.

نظرت شيرا حولها، لم تجد غير أختها إليانا تجلس جنب باب القبو. لقد مرّ اليوم الأول، وحتى الآن لم تعدّ أمهما.

تعلم شيرا أنّه ربَّما خطبٌ قد حلّ، ولكنّها لا تريد أن يحصل معها ما حصل يوم تهيأ لها أنّها سمعت قرع الباب. تريد أن تبقى قويةً كإليانا وأمّها سارة. نظرت شيرا قليلًا إلى أعلى الغرفة ثمّ استسلمت للنّوم.

«شيرا، حبيبتي، استيقظي»... قالت إليانا لأختها شيرا الممدّدة بجانب الباب، وتابعت: «لا بد أن نأكل الآن».

«لا أريد أن آكل الآن، سوف أنتظر أمي إليانا»... أجابت شيرا وهي تفتح عينيها الصغيرتين وتنظر إلى وجه إليانا: «لا بدّ أنّها قادمة قريبًا، أليس كذلك.»

«نعم، نعم أعلم هذا، ولكن علينا أن نقوم بتنفيذ تعاليم ماما سارة بحذافيرها. نأكل كما أخبرتنا حتى نبقى أقوياء»... أجابت إليانا.

«حسنًا، إليانا، حسنًا»... قالت شيرا.

«سوف أقوم بإحضار الطّعام، نأكله، ثمّ ننام قليلًا»... قالت لأختها.

مرّت اللّيلة الأولى على الفتاتين بصعوبة. ينامان قليلًا ويستيقظان يستمعان بأذني القلب إلى صوت الخطى البعيدة عسى أن تكون هي خطى أمّهما سارة القادمة إليهما، تحمل خيرات الله بين يديها. الطرق على الباب هو جلّ حلمهما الآن. ليس بإمكان إليانا وشيرا الاستمرار في هذا العالم المتوحش وحدهما. تعلمان ما قال لهما والدهما منذ أن اختبئوا جميعًا في هذا القبو: «العَم بنيامين هو الملاذ الأخير. إذا ضاقت السّبل، ارحلا إليه، وسوف يعتني بكنَّ».

«ما العمل يا إليانا»... سألت شيرا أختها، وقد تملكها الخوف مِن أنّ أمّهما قد لا تعود مجدّدًا، كما حصل من قبلُ مع أبيها.

«شيرا، كما أخبرتك لا يسعنا إلّا الانتظار، هي قادمة، أشعر بذلك»... أجابت إليانا، والّتي يبدو على محياها الخوف. تقول هذا كي تطمئن أختها شيرا. لا تريد من شيرا أن تشعر بالخوف مجدّدًا، وشيرا أصغر منها، وعلى عاتقها يقع الحفاظ على اختها، سواءً من الضّرر الحسيّ أو المعنوي.

«سوف يحلّ الظلام قريبًا إليانا، وأمي لم تعد، إنّي أشعر بالخوف حقّا»... قالت شيرا.

«أنظري شيرا، سوف ننتظر اللّيلة، وفي حال لم تعد أمّنا من الخارج، نأخذ الطّعام المُتَبَقِّي، ونذهب إلى بيت العم بنيامين في جنح الظّلام ليلة الغد. أنا متأكّدة أنّ ماما سارة لو لم تعد في غضون هذين اليومين،

فهي سوف تقوم بالذّهاب مباشرةً إلى بيت العم بنيامين وسوف تجدنا هناك بخير وثمّ نقوم بالاختباء مجدّدًا هنا»... قالت إليانا بكلّ ثقة.

«ولكنّي لا أريد أن أترك القبو قبل أن تأتي ماما سارة!»... قالت شيرا بنبرةٍ حزينة.

«أعلم هذا، وأنا أيضًا لا أريد أن أترك القبو قبل أن تأتي ماما سارة ولكن انا متأكدة بأن أمّنا سارة بأمان وهي سوف تعود قريبًا إليانا، لا تخافي!» قالت إليانا لشيرا.

السّاعات الباقية على اللّيلة الثانية تمرُّ ببطءٍ أكثر وكأنّ هذا الوقت الّذي غابت أمّ سارة غدا قرنًا أو ثلاثةً أو خمسين.

الزّمن ليس كما يظنّه البعض، هو أعمق من كل فكرةٍ طرأت على عقل بشريٍ قبل. الزمن نسبيٌ على من يشعر به، تغدو بعض السّاعات فيه قرونًا لا تنتهي ويغدو بعضها الآخر ثوانٍ لا تُحسّ.

«هيّا شيرا، تأكّدي أنّكِ وضعتي كل الطّعام المتبقي في سلّتك، بيت العم بنيامين ليس بعيدًا من هنا. سوف نصله في غضون نصف ساعةٍ على الأكثر، ولكن علينا الانطلاق في ظلام اللّيل. لا نريد من دوريات النّازيين أو أعوانهم أن يرونا»... قالت إليانا لشيرا.

«أشعر أنّ هناك خطبٌ ما»... قالت شيرا.

«شيرا، حبيبتي لا تخافي، نحن بحفظ ربِّ إسرائيل. ألسنا أبناء يعقوب؟ تحلّيّ بالإيمان شيرا، تحلّي بالإيمان!»... قالت إليانا بانفعال.

«بالإيمان أتحلى، فلتعد أمّي بسلام يا رب. أنا جاهزة إليانا، فلنذهب للعمّ بنيامين»... أجابت شيرا وقد اقتربت من اختها وأمسكت يدها.

الساعة تميل إلى الثّامنة مساءً، واللّيل دامسٌ. المدينة يخيّم عليها الظّلام، لا تضاء البيوت، تلك أوامر قيادة الجيش.

حسنًا، هذا شيءٌ إيجابي، من السّهل على إليانا وشيرا التسلّل لبيت العمّ بنيامين. الفتاتان تحفظان المدينة ظهرًا عن القلب، وبالأخصّ الحيّ الّذي يقطن فيه العمّ بنيامين. هو في الأصل حيّهم، كان جلّ يهود المدينة يقطنون هناك، قبل أن تبدأ سياسة التهجير وكأنّه قدر هذا الشّعب أن يهجرّ كل حينٍ وأخرى.

أجداد اليهود موجودين في أوروبا منذ أكثر من ألفي سنة، ينتمون إلى هذه الأوطان، يقاتلون بقوةٍ في حروبها، تجري في دمائهم مجرى الدّم، حتّى أن بعضًا منهم قد نسي لغته الأصلية، العبرية، ويتكلم حصرًا بلغة موطنه.

عانوا من قبل من الرّومان، من الاسبان، ومن بعض الأوباش على مرّ العصور ولكنّهم كانوا أقوى، حفظوا تاريخهم وأرض أجدادهم الّتي انتموا لها، فبأي حقٍ يحق للنازيين انتزاع تلك الأرض منهم، وترحيلهم إلى المعسكرات «لإعادة توطينهم لاحقًا».

«تمهلي شيرا، أرى بعض الأشخاص هناك»... همست إليانا لأختها الصّغيرة، وتابعت: «انتظري قليلًا، لقد شارفنا على الوصول لمنزل العمّ بنيامين. لا أريد أن يلقى القبض علينا هنا».

«انظري إنهم يدخلون ذاك البيت، هيّا لنتابع المسير قبل أن يخرجوا مجدّدًا»... قالت شيرا لها.

تابعت الفتاتان المسير لمنزل العمّ بنيامين، نصف ساعةٍ بالنسبة لهما استغرقت سنةً أو ربما أكثر، ولكن هي نسبيّة الزّمن.

«بوف، بوف، بوف»... قَرعٌ عل البّاب، وبنيامين وعائلته داخل المنزل.

«من يطرق الباب في هذا الوقت المتأخر!»... قال بنيامين لزوجته.

«سوف أذهب لأرى»... قالت زوجته.

«لا لا، انتظري هنا، أنا أذهب. الوقت متأخر، اجلسي مع الأولاد فقط وانتظري»... قال لها.

توجّه نحو الباب، والفتاتان، شيرا وإليانا، تنتظران بالقرب من باب شقّته، وَجِلتَان من أن يصعد أحدهم هذا المبنى ويراهنَّ.

بنيامين يتقدّم خطوةً نحو الباب، محترسٌ جدًا. ربما الطارق سارقٌ. كثر السارقون في الآونة الأخيرة.

حكومة الرّايخ بدأت منذ مدّة توزيع الطّعام على أبناء مدينة «مناهيم»، ولكن كون بنيامين يهوديًا فإن ذلك يعني أنّ له نصف ما يأخذه الألماني غير اليهودي. النّصف لا يكفي بنيامين وعائلته. من الصّعوبة بمكان أن تطعم ستة أفواهٍ جائعة بحصّة طعامٍ في العادة تكفي ثلاثة. بنيامين وخمسة أفواهٍ أخرى لا يكفيهم الطّعام.

لكنّ بنيامين واسع القدرة، فطنٌ. عرف منذ مُدّة ليست بالقصيرة كيفية الحصول على حصص إضافية من الطّعام.

بالتأكيد يعني هذا العمل مع الضبّاط النّازيين، وتسليمهم لوائح طويلة بأسماء العائلات اليهودية، أماكن سكنها، عدد أفرادها، وأماكن عبادتهم. يريد أن يضمن البقاء في مدينة «مناهيم»، البيوت أصلًا غدت فارغة بمعظمها.

النازيّون أجبروا معظم العائلات على الرّحيل، بالترهيب تارةً، بالإذّلال تارةً أخرى، وبالعنف مراتٍ عديدة. اليهود كلهم في ألمانيا يذكرون «ليلة البلّور»، عندما قامت قطعانٌ من النّازيّين باجتياح محلّاتهم، بيوتهم، ودور عبادتهم، انتقامًا لموت أحدهم في فرنسا. النازيون وقتها، قتلوا عشراتٍ منهم، اعتدوا عليهم، ومن كثر الزّجاج الّذي كسروه، أسموا اللّيلة ليلة البلّور!

«ما الذي أتى بكما إلى هنا؟»... قال بنيامين للفتاتين عند الباب.

«عمّي بنيامين، أمّنا سارة أخبرتنا»... قالت شيرا قبل أن يقاطعها بنيامين قائلًا: «ادخلا، ادخلا، لا أريد أن يراكن أحد عند باب شقتي!»

«مَن هناك بنيامين، مع من تتكلم؟»... قالت زوجته من الدّاخل.

«ادخلي الأولاد إلى غرفة النّوم وتعالي هنا إلى غرفة الطّعام»... أجابها بنيامين، ثم نظر إلى الفتاتين وقال: «ما الذي حدث، أين والديكن، أين كنتم طوال هذه الفترة، لم أسمع عنكم شيئًا؟».

«عمّي، لقد اختبأنا طوال الفترة السّابقة داخل قبوٍ في منزل صديقٍ لجدّي شمال «مناهيم». كنّا هناك طوالِ الأربع شهور السّابقة»... أجابت إليانا.

«وأين أبيكُنّ وأمّكُن؟»... سألهما بنيامين.

«أبي رحل منذ فترة يحضر بعض الطّعام ولم يعد، وأمّا أمّي فقد رحلت منذ ليلتين ولم تعد من حينها، ولقد أوصتنا أنّه في حال لم تعد خلال ليلتين أن نأتيَ إليك لتساعدنا»... أجابت إليانا.

«حسنًا فعلت أمّكن، وحسنًا فعلتن. انتظرن قليلًا هنا، سوف أحضر لكن بعض الطّعام»... قال بنيامين لهما.

«لا داعي عمّاه، معنا بعض الطّعام في السّلة مع شيرا»... قالت إليانا.

«نعم، لو شئت أكلت معنا. طعام الاثنين يكفي الثلاثة»... قالت له شيرا.

«عزيزتي لا داعي. تناولن طعامكن بهدوء، وسوف آتيكن بعد عشر دقائق»... قال لهما.

«حسنًا عمّاه، نحن ننتظرك هنا»... قالت شيرا.

دخل بنيامين إلى المطبخ، ثم خرجت زوجته بعد أن اطمأنت أنّ أولادهم الأربعة قد غطوا بسباتٍ عميق.

«ما الذي أحضر هاتين البنتين هنا؟»... قالت له.

«سارة المجنونة وزوجها! يريدان أن يخرّبا عليّ وعلى عائلتي!»... قال بنيامين.

«ما العمل الآن؟ حصة الطّعام لا تكفينا، ولدينا ما يكفي من أزمات! ماذا ستفعل يا بنيامين؟»... سألته والغضب واضحٌ على محيّاها.

«لا تقلقي، أعلم ماذا سأفعل. سترين أن هاتين البنتين هما نعمةٌ من السّماء»... أجاب بنيامين.

«ماذا تقصد؟ هل ستقوم بـ...؟»... ثم نظرت إليه نظرة استغرابٍ شديدٍ.

«عائلتي أولًا، تعلمين ذلك. الطّعام لا يكفينا أصلًا، ونحن بِغِنًى عن طفلين إضافيين، ونحن بغنًى أكثر عن المشاكل الّتي قد تنتج في

حال عرفت الشّرطة أنّهما هنا. أليس كذلك؟»... أجاب بنيامين وهو لا ينتظر أيّ جوابٍ من زوجته.

بنيامين هو قائد الأعوان، والأعوان هم بعض اليهود المُتعاملين مع الحكومة النّازيّة وقواها الأمنية. الأعوان يقومون بتجميع اليهود وتنظيمهم للرحيل على متن القطارات لخارج المدينة، وبناء الجدران حول تلك الأحياء، والضرب بكلّ قسوة على من تخوّل نفسه إزعاج السّلطات الرسمية. بنيامين بعبارة أخرى هو «الجسّيس»، حقير «مانهايم».

«بوف بوف بوف»... قرعٌ على البّاب مجدّدًا. تفتح زوجة بنيامين الباب فيدخل بنيامين يرافقه بعض الجنود النازيّين.

«الفتاتان في الداخل» قال بنيامين لأحد الجنود الواقفين على الباب. لقد سارع واستدعى الجنود النازيّين إلى منزله. يريد التخلّص من الفتاتين وعبئهما، والحصول على حظوةٍ عند الضابط الجدّيد المُعيّن من ثلاثة أيامٍ، وربما الحصول على بعض الحصص الإضافية من الطّعام. يبيع قومه بثمنٍ بخس، حصصٍ معدودات.

«سوف أحضرهما من أجلكم. لقد كانتا مختبئتين مع والديهما، ولكنّ والديهما اختفيا وقد جاءتا هنا تبحثان عن مكانٍ تقطنان فيه»... أضاف بنيامين ثمّ أشار لزوجته الّتي تحرّكت على الفور.

«شيرا، أليانا، والديكن قد رُحّلا إلى أحد الأماكن في بولندا. لقد قام العمّ بنيامين بإحضار بعض الجنود الّذين سوف يرسلونكنّ إلى نفس المكان في بولندا. لقد رأينا أنّه من الأفضل أن تبقيا مع والديكن»... قالت الأفعى، زوجة الجسيس إلى الفتاتين.

أحد الأماكن، هو بالأحرى أحد المعسكرات الّتي يَجمّع فيها النازيّون «الشعوب المتدنّية»، اليهود والغجر مثلًا، ليصار إلى التعامل معهم لاحقًا.

«ولكن عمّتي»... قالت شيرا للأفعى، قبل أن تقاطعها: «عزيزتي، العمّ بنيامين أدرى بمصلحتكن، أم تقل لكن سارة ذلك؟»... قالت وقد دسّت السّم كعادتها بين الكلام المنمّق.

«أحضري الفتاتين إلى هنا!»... قال بنيامين وهو يحصي المُعلّبات الّتي حصل عليها لقاء خدمته الخسيسة للرّايخ الأعظم.

الفتاتان تأتيان على استحياء، يمسكهما الجنود من ساعديهما ويأخذوهما إلى السّيارة العسكرية الّتي تنتظر في الشّارع.

الفتاتان ليستا لوحدهما، فقد ألقى النّازيّون القبض على بضعٍ من اليهود المختبئين، والقطار سوف ينقلهم جميعًا إلى «أوشفيتز»، في بولندا.

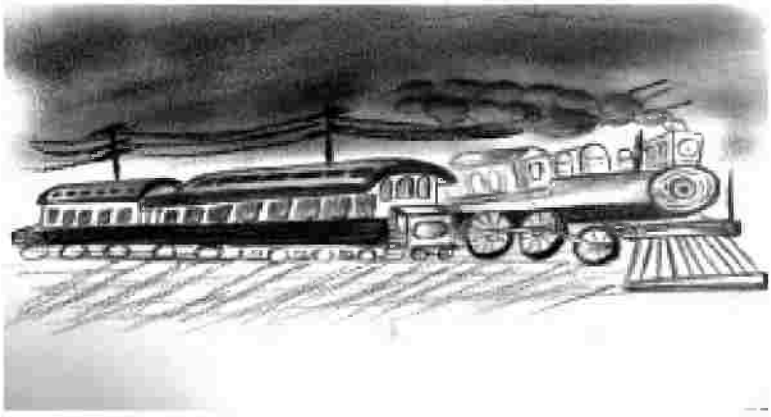

«بابب، بابب، بابب»... يعلو صراخ صفّارة القطار المشؤوم وكأنّها تنادي أهل «مناهيم» ليشهدوا رحيل بعضهم، وكأنّه ذاك النّازي الأخرق يحقّ له أن يمثّل دور الطبيعة، فينفي من يشاء من أرضهم، ويقتل من يشاء، ويعذّب من يشاء. والأسوأ من ذاك الأخرق، حقير مانهايم، الجسّيس «ينيامين» يبيع إنسانيّته بعرض من الدنيا فانٍ.

لقد كانت ليلةً سيّئةً جدًّا على الطفلتين. النازيون يجمعون المنفيّين كقطعان ماشية في قيظ الشّمس، وزمهرير اللّيل، في أرضٍ جرداء، يُجلسونهم على الأرض حتى يعود القطار مرةً أخرى من محطته. ترحل القطارات محمّلةً بالمئات بل الآلاف، وتعود يَصفِرُ فيها صوت الريح، فارغةً تمامًا.

قد يتساءل البعض عن مصير من رحلوا، فيأتيهم الجواب أنّهم يعملون في مصانع الذخيرة، أو الحقول، أو غيرها، حتى يُؤَمّنوا للنّازيين

قوت يومهم، وسلاحهم الّذي يعينهم على اضطهادهم، وتدور المعاناة في دائرةٍ مغلقة.

لا يعلم المُضَّطهَد أنّه يمتلك سلاحًا أقوى من سلاح الجلّاد وزبانيّته، ولكنّهم هؤلاء الحقراء، الجسّيسين في كلّ مكان ينثرون بذور الخوف، ويحصدون ثمار الاضطهاد من مساكين اليهود والغجر وذوي الحاجات الخاصّة الّذي مارس عليهم النّازيّ الأخرق المتعجر دور الإله.

«اصعدوا إلى القطار»... صرخ أحد الجنود النّازيين. الأعوان وَهُم بالأصل من يهود «مانهايم» يتحلقون حول بني جلدتهم، يراقبون سير العمليات بسلاسةٍ ويُطَمئِنون الراكبين أنّ الرّحلة سوف لن تكون بالرّحلة الطويلة. يحثّونهم على الصعود بسرعة. التّذاكر لا تنفذ، ولا المقاعد. وأيّ مقاعدٍ تحتوي هذه الصناديق المعدنيّة الّتي يحملها القطار خلفه. هي صناديقٌ بكلّ ما تعنيه الكلمة، يُحشَر فيها النّاس على بعضهم، ثم يغلقها أحد الجنود من الخارج، ليأمن عدم خروج أيٍ من «البضاعة» قبل الوصول إلى المنطقة المرجوّة.

بِضاعةٌ نعم، هكذا يغدو الإنسان في عين أخيه، بضاعةً، حين يظنّ أنّ الله أو الطبيعة أو أيّ شيء آخر قد أعطاه بسطةً من ذكاءٍ أو جسدٍ أو قوةٍ، فيمضي مستكبرًا يقيس جماجم الآخرين ليثبت أنّه المتفوق حصرًا، وأنّ لون بشرته أو لمعة عينيه أو مكان إقامته أو شكل معبوده،

يعطيه الحقّ أن يعلن كيانه العنصريّ فوق آلام الآخرين وأحزانهم، بل ودمائهم وجماجمهم!

يتابعون الصّعود إلى القطار، والصّفّارة تعلو مجدّدًا لتعلن أن القطار بدأ رحلته. النّازيّون يتقدمون رافعين البنادق، الأعوان يتراجعون بسرعةٍ إلى الخلف فقد انتهت مهمّتهم.

شيرا وإليانا على وشك الصّعود على القطار المزدحم. أحد الرجال من الخلف يساعدهما في الصّعود، وهما لا يعرفانه.

«هيا بسرعة. أدخلوا هذه الفتاة»... يصرخ الرّجل، يريد أن تصعد إليانا بسرعةٍ على متن القطار.

«سيّدي، أختي، أختي!»... تصرخ إليانا للرجل الّذي ينظر بالقرب منه ويرى شيرا شاردة الذّهن، فلم يسبق لها أن التقت بالكمّ الهائل من المعاناة والألم.

تنظر في وجه كلّ يهوديّ حولها، في الشّجن المحفور على محيّاهم، في قلّة الحيلة للوقوف في وجه الجلّاد، في أصوات الأطفال وصراخهم ولوعتهم، وفي ضجيج تلك الصّفارة اللّعينة الّتي تصرخ فيهم وتدعوهم للرّحلة نحو الوهم.

«شيرا!»... تصرخ إليانا وقد اقترب الجنود النازيّون من القطار يدفعون الباقين من «البضاعة» فيه.

«لا تقلقي! سوف أحضرها، سوف تكون في العربة خلفك. هذا وعد!»... قال الرّجل، وقد سمع في صوت إليانا بكاء نبيّ الله يعقوب.

يزاحم من حوله، ثمّ يمسك بيد شيرا الصغيرة، يشدّها إليه، كما يشدّ النّازي سوطه ليقهر مضطّهديه، ثم يرفعها لإحدى النّساء على باب عربةٍ أخرى خلف عربة إليانا الّتي تراقب من بعيد.

المرأة على باب العربة تأخذها، تدخلها إلى داخلها، والنّازيّون يرفعون بنادقهم ليبدؤوا بإطلاق النّار على كل متخلّفٍ عن القطار.

الرجل ذاك، لا يزال يبحث عن كل طفلةٍ أو طفلٍ لم يصعد، يحملهما بكفيّه وبمروءته إلى القطار. يشتدّ ضرب النّار، ويتساقط المتخلّفون الواحد تلو الآخر.

الرّجل يحسب أنّه ينقذ الأرواح، يناضل من أجل أن ينقذ الأطفال، مستقبل شعبه. الجنود على أبواب «المعلّبات» يغلقونها على من فيها. طلقة رصاصٍ كافيةٍ لينتهي الرّجل، يطلقها متمترسٌ خلف بندقيّةٍ، جبانٌ على أعزلٍ، لا لشيء إلّا لأنّه يمتلك القوّة، وفي أوّل مبادئ النّازية المادّية فإن البقاء للأقوى وإن الحقّ للقوّة!

«سوف تكونين بخير لا تقلقي عزيزتي»... قالت تلك المرأة لشيرا.

«أريد أبي، أريد أمي، أريد إليانا!»... صرخت شيرا في وجه تلك الامرأة ثمّ سارعت فحضنتها وقد سال من عينيها الدمع.

«لا تقلقي عزيزتي. أنا متأكدة من أنّهم جميعًا بخير. عندما نصل سوف أتأكّد من أنّهم سوف يجدونك، حتّى ذلك الوقت أرجو أن تبقي معي. ما رأيك؟»... سألتها هذه المرأة الغريبة.

هزّت شيرا رأسها، الّذي خبأته في أحضان هذه المرأة،

«أنا شيرا»... قالت لها.

«أووه أنت أجمل أغنية عزيزتي. أنا الخالة أديرا وأنتِ حبيبتي في أيدٍ أمينة»... قالت الإمرأة لها.

من الخلف أتت فتاةٌ أخرى.

«إفرات تعالِ هنا. تعرفّي على صديقتك الجديدة شيرا»... قالت أديرا.

مدّت إفرات يدها إلى شيرا فصافحتها والخجل ظاهرٌ على وجهها.

«إفرات برفقتي أيضًا»... قالت أديرا وتابعت: «أنا متأكّدة أنّكما ستكونان صديقتين. إفرات هي بنت أخي الصّغيرة وهي ترافقني في هذه الرّحلة».

«إلى أين يأخذوننا خالتي أديرا؟»... قالت شيرا.

«بعض الأعوان أخبرونا أنّ النّازيين يقومون بتجميعنا في هذه المعسكرات ثمّ فرزَنَا إلى مجموعات وتوطيننا خارج الوطن»... أجابت أديرا، وتابعت: «هي محطّة وأرجو أن ننتهي قريبًا ونلتقي

بجميع الّذين رحلوا قبلنا. شيرا، ما رأيك أن تخلدي إلى النّوم قليلًا حتى نصل. يبدو التّعب على وجهك ظاهرًا».

«سأحاول خالتي أديرا، سأحاول»... قالت شيرا متبسّمة وقد أحسّت ببعض الطمأنينة في كلمات أديرا، ثم جلست عند أقدامها في المقصورة المزدحمة واستسلمت عيناها للنّوم.

«بابب، بابب، بابب» صوت الصّفارة مجدّدا ينذر القابعين في المعلّبات المتحرّكة أنّ القطار قد وصل إلى محطتّه وأنّ عليهم النزول. المعلّبات المتحرّكة مظلمةٌ من الدّاخل، تتكدّس البضاعة داخلها، الأقدام فوق الأقدام، الرؤوس جنب الرؤوس، الأكتاف على الأكتاف، وفي المنتصف دائرةٌ صغيرةٌ فارغةٌ، تنام فيها الطّفلة شيرا، تحرسها كلّ النّساء، والقوّية أديرا.

«شيرا، استيقظي حبيبتي لقد وصلنا»... قالت أديرا، وهي تهمُّ بحمل الطّفلة الصّغيرة، وتمسك بيد إفرات تريد أن تحميهما حيت يدخُلنّ المعسكر.

«بخخ، بخخ، بخخ»... أبواب المعلبّات تفتح من الخارج، والجنود النّازيون يصرخون بالنّاس المكدّسين داخل المقطورات ليخرجوا منها. يدخل الضوء المقطورات، وتنظر أديرا إلى الخارج. الجنود أكثر تنظيمًا من أيّ شيءٍ رأته قبل. يصطفون حول المقطورات، كلٌّ يمسك بندقيةً.

«اخرجوا، الواحد تلو الآخر، لا تتدافعوا. نريد الأمور منظمّة، ولا أريد أن أسمع أي صراخٍ»... قال أحد الضّباط الواقف بين خطيّ جندٍ عند مدخل المقطورة.

يخرجون كما قال، الواحد تلو الآخر. أديرا تمسك يد إفرات وبالأخرى تمسك يد شيرا، الّتي استيقظت، والّتي تنظر حولها إلى هذه القلعة العظيمة المشّيدة، أوشفيتز بيركينو. بناءٌ هائلٌ، تعلوه سماءٌ بعيدة، والأرض طينيّة، تشكو خطوات السّائرين عليها. السّائرون لا وزن لهم،

أضحوا أمواتًا بحق، جلودٌ على أجسادٍ نَخِلة، عيونٌ جاحظة، وألمٌ ينطق من محيّاهم، ينظرون إلى الجلّاد السّمين، ويعلمون له ما شاء من ذخائر وبنادق، يأمرهم وينهاهم، فيُحييهم ويُميتهم!

يجتمعون كلّهم. شيرا تنظر تبحث عن ظلّ إليانا. هي الأمل المتبقي لها في هذه الحياة، أقصد في هذا «شبه الموت». أشباه البشر، ذوي البنادق يسخرون من أشكالهم، يمثلون دور إله، يمسكون بالبعض فور نزولهم، يأخذونهم بعيدًا ويتركون الآخرين، في ممشًى مستقيم، والأرض تحتهم لم تزل تشكو خطوات السّائرين عليها والسّماء تقترب.

«خالتي أديرا، إليانا تشبهني. لو رأيت أيّ أحدًا يشبهني أعلميني»... قالت شيرا.

أومأت أديرا برأسها، لا تقدر على الكلام بين جموع البائسين، وهي تتحسّس المذلّة القابعة في عيون شعبها المتألّم. تنظر بعيدًا إلى أحد الجنود النّازيين، الّذي يضحك مع زميله، وكأنّ كل هذا الويل السّائر حولهم لا يعني شيئًا، وكيف يعني لهم شيئًا وقد تشرّبوا الكراهية، ودفقت في شرايينهم المادّية والتفوق الحيوانيّ، فغدوا ماكيناتٍ عنصرية يسيّرها الجلاد الأكبر، الفوهرر اللّعين.

قطيعٌ من الجند يمرُّ بجانبهم، يمشون كالآلات، خطواتٍ خلف خطواتٍ كالسّاعة. يُشهِرون بنادقهم، ويرفعون عيونهم شاخصة، يريدون أن يبنوا عالمًا جديدًا على رفات الضعفاء والبائسين.

«شيرا، شيرا!»... صرخت إليانا.

«أديرا، أنظري، إليانا هناك»... قالت شيرا لأديرا الّتي سرعان ما أشارت بيدها إلى شيرا، ولكنّ الجنود بينهما.

«حبيبتي إلينا! هي بخير!»... قالت شيرا وتابعت: «أنا بخير إليانا! لقد اعتنت بي الخالة أديرا. وعدتني أنّها ستجدك، وصدقت»... قالت شيرا متبسمّة وناظرةً إلى وجه أديرا. الصفوف تتابع المسير وإليانا تبتعد مجدّدًا.

«هي ترحل مجدّدًا! أحضريها خالتي أديرا بسرعة!»... قال شيرا.

«شيرا، علينا أن نكفّ قليلًا عن الكلام حتّى نصل إلى الداخل. أنا متأكّدة أنّنا سوف نلتقي إليانا. هي بخير لقد اطمأننا عنها»... قالت أديرا، تريد من الطّفلة أن تكفّ قليلًا عن الكلام والصّراخ حتى لا تثير ضجةً فيأتي النّازيون من حولهم.

في المعسكر، تجتمع خطوط المشّائين وكأنّها مجاري سيلٍ تلتقي عند بحيرةٍ عظيمة. في تلك البحيرة نصب مسرحٌ كبيرٌ، تتوسطه منضدةٌ عظيمة، وضابط يبدو أنّه من ضبّاط الصفوف الأولى، يجلس مراقبًا سير العمليات. الجنود وبعض المتعاونين البولنديّين يشرفون على تقسيم المعتقلين إلى مجموعاتٍ صغيرة، ثمّ إدخالها إلى غرفٍ كبيرة.

«إفرات، شيرا، مهما حدث أريد منكما ألا تتركانني»... قالت أديرا، وقد أخذت على عاتقها مهمّة الاعتناء بالطفلتين.

«حسنًا، خالتي أديرا»... قالت شيرا، ثمّ أكلمت تنظر في جموع النّاس حولها، تريد أن تبحث عن أمّها. ستجدها، هذا شيءٌ مؤكّد. لقد وعدتها الخالة أديرا، وهي صادقة الوعد، أنّها ستجد إليانا ووالديها.

«شيرا، انتبهي لا تتركي يدي، حسنًا»... قالت إفرات لصديقتها الجديدة شيرا. أديرا حريصةٌ جدًا على الطفلتين لا تريد أن تفقدهما، رغم أنّ الفقد أضحى عادةً يوميةً عندهم، يفقدون كل يومٍ عزيزًا عليهم.

«اسمعوا جميعًا، سيتم تفريقكم إلى مجموعات، وستُعطَون أرقامًا. كل مجموعةٍ تدخل غرفة المعسكر حسب ترقيمها»... قال أحد الضّباط النّازيين.

«هيّا هيّا!» صرخ أحد الجنود: «أولًا تدخلون لتخلعوا ثيابكم، وثمَّ للاستحمام. لا يسمح لكم بارتداء أيّ شيءٍ خلال الاستحمام».

«شيرا، إفرات تمسكّوا جيّدًا فيّ، ولو سألكم أحدهم قولا أنّي أمّكما... «قالت أديرا وقد صرفت كلّ حواسها لحماية هاتين الطفلتين.

«لقد قلتِ لكِ أنّكِ ستكونين بخير»... قال صوتٌ ذكوريٌّ لشيرا. الصّوت نفسه الّذي سمعته في القبو، عند بنيامين والآن تحاول جهدها أن تتجاهله: «سوف تستحمون الآن بماءٍ دافئ ثمّ تأكلون. الحياة هنا أحسن من الحياة في ذلك القبو البائس، وفي تلك المدينة المظلمة»... تابع الصّوت نفسه.

«خالة أديرا، هيا الجنود يشيرون لنا لندخل إلى تلك الغرفة»... قالت إفرات.

«النّساء إلى هنا!» صرخ أحد الجنود. يفصلون النّساء عن الرّجال في منتصف الرّحلة تقريبًا. الرّجال لديهم مهمّاتٍ عديدةٍ في المعسكر، يعملون بإمرة أحد المتعاونين البولنديين «الشّاويش»، الّذي يقسمهم ويشغلّهم لمصلحة النّازيين.

النّازيّون ليسوا كثرًا في المعسكر، بحسبةٍ بسيطةٍ فإن أعداد اليهود تفوقهم بثلاثين ضعفًا أو ربما أكثر. لا يعلم أي أحدٍ لِمَ ضَعِفوا في حضرة الجلّاد الّذي استعبدهم بكلّ ما تعنيه تلك الكلمة.

الجلّاد يريدهم لينهوا أعماله، ربما قد يصنعون القيود نفسها الّتي تقيّدهم والسّوط الّذي يجلدهم به. لا يعلمون أنّهم لو أرادوا لزلزلوا المعسكر على من فيه! الرّصاص كله والجنود وأعوانهم لا يكفون لوقفهم بعددهم الهائل. لكنّ الجلّاد ذكي، يرسل الأعوان يخبرونهم أنّهم في حال أنهوا عملهم فسيرحلون من المعسكر إلى مكانٍ آخر، بعيدًا عن وطنهم.

لا يعني الوطن شيئًا الآن. الوطن أضحى الألم المتمكّن من قلوبهم، القيد الرّازح على صدورهم، الهمّ المقيّد لأحلامهم، لا وطن اليوم.

النّازيّون أذكياء، يخبرونهم بذلك، ولكنّهم قد يفعلون عكسه، قد يقتلونهم أو يحرّقونهم أو يذبحونهم أو أيّ شيء، لكنّهم لا يخبروهم بذلك، لأنّهم لو أخبروهم لكانوا ثاروا، الموت قادمٌ لا محالة، فَلِمَ لا يموتون من أجل أن تعتق رقاب شعبهم؟

«الرجاء تنفيذ التعاليم بحذافيرها! لا نريد من أيٍ منكم أن يرتدي شيئًا في الداخل. ثياب داخلية، مجوهرات، ربطات شعرٍ. اخلعوا كل شيء وضعوها في الصّناديق تلك، وانتظروا»... قالت ماريا، الّتي يبدو عليها أنّها ذات منصبٍ رفيعٍ داخل المعسكر.

تُقَسِّمهم ماريّا، وتزيدهم فرقةً على فرقتهم: «المجموعة الأولى. تحركنَّ هيا، ادخلن المبنى الأول. هيّا»... قالت إحدى العسكريّات الواقفة بجنب ماريّا. ماريّا تنظر في وجوه من حولها، تفترسهم بقلبها الأسود، المُجَرّد من المشاعر الحيوانيّة. ماريّا هي صنمٌ، شبح الموت، سكّين الجزّار، وسوط الظّالم، ومخالب إبليس في المعسكر. ماريّا لا تخبر الأسارى شيئًا، تقودهم كالأنعام إلى المباني.

«لا تتركانني، لا أريد أن أتوه مجدّدًا»... قالت شيرا بحسرة.

«لا تخافي شيرا، سنبقى بقربك. عليكِ فقط ألا تتركي يدي أبدًا مهما حصل. ولا تنسي الخالة القوية أديرا برفقتنا. ستهتم بنا ريثما ينتهوا من إجراءاهم السّخيفة. أليس كذلك خالتي أديرا؟»... قالت إفرات.

«نعم، نعم عزيزتَيّ. الآن ابقيا هادئتين. ومهما حصل تمسّكا بيدي أو بثوبي»... قالت أديرا.

دخلنّ ثلاثتهنّ إلى غرفة كبيرةٍ أول المبني. المبنى فارغٌ من الرّجال. بضع نساءٍ يرشدّن الأسيرات داخله. صناديقٌ مكدّسة على منضدةٍ بيضاء تخلع فيها الأسيرات كلّ مجوهراتهنّ، ريثما ينهينّ الاستحمام. أديرا لا تملك الكثير. خاتم زواجها.

«هل أستطيع ألا أخلع خاتم زواجي؟»... قالت أديرا لجنديّةٍ نازيّة عند المنضدة. الجنديّة لم تحمل عناء الرّد. تنظر إليها، ثم تضربها بالسّوط وتصرخ: «غيفتاي».

تخلع أديرا الخاتم على مضض. شيرا تخلع السلسال عن رقبتها. أهداها أباها إياه يوم بلوغها تسع سنين. شيرا أيضًا تمتلك إسورةً ذهبية، تخلعها. ثم يدخُلنّ جميعًا الغرفة الثانية. واسعةٌ جدًا، أوسع من قبو مانهايم بعدّة أضعافٍ، ولكنّ صدر شيرا يضيق وكأنّها تدخل في قفصٍ صغير، بحجم قلبها. الآن على الجميع خلع ملابسهنّ. حفاةٌ، عراةٌ كيوم الولادة، كيوم النشّور، كيوم البعث.

تنظر شيرا على استحياءٍ إلى أديرا: «شيرا، أسرعي. ستأتي الشرّيرة بالسّوط»... قالت إلينا وهي تنظر حولها في الغرفة الكبيرة لليهوديّات في الغرفة اللّواتي يخلعن جميعهنّ ملابسهنّ.

«سوف نعطيكنَّ ثيابًا نظيفةً بدل القطع الرثّة المزرية الّتي ترتدونها»... قالت إحدى العسكريات النّازيات.

«هه! ألم أقل لكِ من البدءِ أن تذهبي إلى العم بنيامين. أرأيتِ الآن كل شيءٍ على ما يرام. لم يبقَ إلّا القليل!»... قال صوتٌ ذكوري لشيرا. شيرا تتجاهل ذلك الصّوت مجدّدًا.

«لا ينفعك التجاهل شيرا. تعلمين أنّي على حق»... قال الصوت مجدّدًا، ولكنّ شيرا تابعت خلع ملابسها دون أن تعيره اهتمامًا.

في نهاية هذه الغرفة الكبيرة باب حديديٌّ ضخمٌ جدًا. تخلع جميع الأسيرات ملابسهن ثم يتوجّهنّ عارياتٍ قبالة الباب، يقفن بصفٍ

واحدٍ. تفتح إحدى المجنّدات الباب دون أن تنبس ببنت شفة. ردهةٌ مظلمةٌ طويلةٌ تنتهي ببابٍ آخر.

«عندما يُفتَح الباب، ادخُلنَ جميعًا، رشّاشات الماء فوقكُّن ستغسلكن من قذاراتكن»... قالت العسكريّة النّازية عند الباب.

الأسيرات العاريات صامتاتٌ جدًا. شيرا تنظر إلى أديرا، تحاول ألّا تنظر إلى أسفل جسدها. أديرا تمسك يدها بكلّ قوّة.

«خالتي، أشعر بالبرد»... قالت شيرا.

«وأنا أيضًا»... قالت إفرات.

«عزيزتاي، بضع دقائق فقط، ننتهي من هذا ثم نرتدي الملابس النّظيفة. بإمكانكما الصّبر أليس كذلك؟»... قالت أديرا.

«نعم، نعم» قالت إفرات... «أنا قويةٌ جدًا مثلكِ».

تبسّمت أديرا الّتي تشعر بالبرد أيضًا ولكنّها تريد أن تشدّ من عزم الطفلتين. تبسّمت شيرا أيضًا وانتزعت من داخلها ذاك الشعور بالضعف، رفعت رأسها، نظرت إلى أديرا وإفرات ثم بكلّ ثقة قالت لهما: «لم يبقَ إلا القليل، أنا متأكّدة من ذلك».

عند نهاية الرُّدهة، يفتح الباب من الداخل. غرفةٌ مربّعةٌ كبيرة، الجدران رمّاديّةٌ مقيتة، وفي أعلى الغرفة رشّاشات الماء تمامًا مثل ما قالت العسكريّة في الخارج.

تقف الأسيرات العاريات تحت هذه الرشّاشات. يشعُرنّ بالبرد كلّهُنّ، ولكن بعض الماء النّظيف هو شيءٌ مهمٌ الآن. يريدون أن يُنهِينّ الاغتسال ولبس الملابس لكي يحصلنّ على قليلٍ من النّوم. يضيء ضوءٌ أصفرٌ خافتٌ في الغرفة، في المنتصف بين الرشّاشات. تنظُر الأسيرات بعينٍ واحدةٍ إلى ذلك الضوء الباهت. ثانية، ثلاثٌ، عشرةٌ ولم ينزل الماء بعد.

«هيّا لقد مللنا. نريد الانتهاء»... قالت إفرات حانقة.

نظرت إليها شيرا، ثمّ تبسّمت وقالت لها: «اصبري، لم يبقَ إلّا القليل».

«إلا القليل»... قال الصّوت الذكوريّ مُجدّدًا ثمّ ضحك.

نصف دقيقةٍ على الأكثر، هو ما احتاجته الرشّاشات لتعمل. غازٌ يبدو بلا لونٍ واضح، يميل قليلًا إلى الزرقة يخرج منها. رائحةٌ غريبةٌ في المكان الغريب، كرائحة اللّوز المرّ. أديرا تتسمّر في مكانها. السّماء فوقهم تقترب كثيرًا. الأرض، أمّهم جميعًا تفتح قلبها لتستوعب الألم القادم، البؤس القادم. الأرض لا زالت لا تطيق بعض السّائرين عليها.

«كانت خدعة!»... صرخت أديرا وأمسكت بيد الطفلتين!

«قلت لكنّ لم يتبقّ إلا القليل»... قالت شيرا ثمّ تبسّمت لهنّ جميعًا، للعاريات في ظلّ الموت، ثم سقطت على الأرض.

«لا لا لا!»... قالت إفرات وهي تنظر إلى ما حولها.

أديرا تقاوم، لا زالت تمسك بيدا شيرا وإفرات، تشدُّ عليها وتصلي لهنّ:

«أيّتها الرّاحلتين إلى الأبدية، فليصحبكما الأبُ الرّحيم، أبُ إسرائيل كلّها، فليمسك يدكما كما أمسكهما الآن، ولتمسكا بعقيدة أجدادكما، وبالتّناخ المقرأ، ولتحلّ عليكِما البركة، كما حلت عليه، أبو الأمم أفراهام»... ثمّ تسّلم نفسها، للموت القادم من أعلى، ثمّ...

***

«حسنًا، لقد انتهيت»... قالت شيرا مبتسمة، ثمّ تابعت: «أقصد لقد انتهت تلك المأساة. أنا لم أنتهِ، ولن أفعل ذلك»... ثم ضحكت للثّلاثة جنبها: «أليس كذلك أيّها الجد؟»

الجدّ يشدّ يديه مجدّدًا على يديّ الطفلين بجانبه، ثمّ تسقط دمعةً أخرى على وجهه متألّمًا لِما سمعه.

«جدّاه ما الخطب؟»... قال بافل وهو ينظر في عينيه.

«لا تسأل شيئًا بافل. ليس من الحكمة أن تسأل أحدًا عن حزنه»... قال زيدون.

«نعم هذا صحيح بافل. الكلّ يعرف كيف هو الحزن، لا تسأل الجدّ عن تلك الدّمعة الآن»... قالت شيرا.

«الآن أتى دور قصّتي!» قال زيدون لهم.

«هيّا، فلتبدأ يا زيدون»... قال بافل وتابع: «كلّنا آذانٌ صاغية».

4

﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ١٢٥ ﴾[النحل: 125].

«أمنت بالله. حسنًا عبد الله، هذا هو ورد اليوم»... قال رجلٌ وقورٌ لعبد الله الجالس قبالته.

«حسنًا، أبي. سأذهب إلى الخارج الآن. وسأعود عند صلاة المغرب إن شاء الله»... قال عبد الله للرّجل.

«لا تتأخر عن موعد آذان المغرب. سأقوم بتحضير الطّعام لك ولإخوتك»... أجاب الرّجل.

يخرج عبد الله من قبوٍ سريٍ أسفل بيته متوجّهًا إلى إحدى ساحات غرناطة، المدينة السّاحرة، حيث يتدرّب أخواه زيدون ومحمد على الكتابة الإسبانية في إحدى المدارس هناك. المدرسة لا تبعد كثيرًا عن بيتهم، بضع دقائق تكفي عبد الله للوصول هناك. إخوته وعدد آخر من الأولاد يجلسون بجانب مدرسّهم الّذي يشرف على تدريب الأطفال على الكتابة وتثقيفهم وتهذيب أخلاقهم.

«سيدي أنطونيو، هل تسمح لي بالدّخول إلى مجلسك؟»... قال عبد الله.

«لقد تأخرت قليلًا يا ميغل. أنت تعرف أنّني صارمٌ جدًا بخصوص الوقت»... أجابه أنطونيو وقد قطّب حاجبيه مظهرًا استياءه من تخلّف ميغل عن موعده.

أووووه، نسيت أن أخبركم، عبد الله وميغل هما نفس الشّخص. في غرناطة، كلّ واحدٍ من الغرباء له اسمان. اسمٌ عندما يخرجون في شوارع غرناطة، وآخرٌ عندما يعودون آمنين إلى بيوتهم.

عبد الله هو الاسم العربي، واللّغة العربية ممنوعةٌ أصلًا في المدينة لدرجة أنّ المتكلم بها قد يواجه الموت حرقًا أو ربّما ما هو أسوأ من الموت.

ميغل هو الاسم الثاني. عبد الله يجد صعوبةً في الأوقات الحاليّة، للتنسيق بين دراسة اللّغة في الخارج، ودراسة اللّغة العربية والدّين في الدّاخل.

أبو عبد الله يُحَضِّره لاستلام إمامة المسجد منه. المسجد السّري، الّذي أقامَه جدّه أسفل منزل العائلة. يجتمعون كل يوم جمعة إذا سنحت لهم الفرصة، وفي الأعياد وبعض الأوقات الأخرى لتأدية الصلوات الجماعية والطّقوس الدّينيّة، سرًا.

«أنت تعلم سيّدي، كان عليّ أن أساعد أبي في عمل المنزل. أبي لا يستطيع أن يقوم بكلّ شيءٍ بمفرده»... قال عبد الله لأنطونيو.

«حسنًا. حاول أن تستيقظ مبكّرًا وألّا تتأخّر مرّةً أخرى عن موعدك. سأسمح لك بالجلوس اليوم. ادخل هيا»... قال أنطونيو، ثم التفت إلى الأولاد يُعلّمهم المبادئ الأساسيّة لفنّ الكتابة.

أنطونيو شديد الحرص على تعليم أبناء مدينته أصول الكتابة والثّقافة. يريد أن يبني مجتمعًا مُتجانسًا، يعمل بكلّ كدٍ لتحقيق الأهداف العليا للمملكة الإسبانية الّتي تخوض الحروب في كلّ مكان، والّتي هي بأمسّ الحاجة لمجتمعٍ متعلمٍ مثقفٍ ينهض بها، ويُعلي من شأنها بين أمم أوروبا.

أنطونيو شديد الولاء للملكة، ولذا يبذل قصارى جهده من أجل أن يخرج جيلًا متعلمًا من الغرباء، أو شعب غرناطة الموركسيّ، كما يسمّيه الإسبان.

«لقد انتهى الدّرس لليوم. الموعد غدًا في نفس التوقيت. لا أعذار غدًا!»... قال أنطونيو وقد رمق عبد الله أو ميغل بنظرةٍ حاسمةٍ.

تبسّم عبد الله له وذهب يساعد أخويه للعودة مسرعًا إلى البيت. اليوم هو أوّل أيام شهر رمضان، وشهر رمضان هو شهرٌ مهمٌ للغرباء، شهرٌ يجتهدون فيه بأداء الصلوات الجماعية ليلًا وصيام نهاره. الغرباء يصومون ما استطاعوا، هم حذرون جدًا في ذلك.

«ألفريدو، أدان، هيا لا نريد أن نتأخّر»... قال عبد الله.

بخطواتٍ سريعةٍ يمضي الفتيان الثّلاثة نحو منزلهم، عبد الله وزيدون ومحمّد. اللّيلة هي ليلةٌ مميّزة بكل معانيها. يتحضّر زيدون لأوّل موشحٍ له بمناسبة الليلة المباركة في شهر رمضان.

يتبارى آباء الغرباء في هذه الموّشحات سرًا، ولكلٍ منهم نصيبٌ في ليلةٍ من ليالي رمضان، حيث يجتمعون لتأدية الصّلاة اللّيلية، وتعزيز الروابط بينهم في ظلِّ سيف الظلّم وقمع الجهلاء.

محاكم التفتيش تنتشر في كلّ زاوية تبحث عن أيّ دليلٍ لمحاكمة «المورکسيون» وحرقهم جماعيًا في احتفالاتٍ يحصرها الملك شخصيًّا وكبار رجال الكنيسة الكاثوليكية، يهللّون لقتل «المورکسيون» ويفرحون بمصابهم.

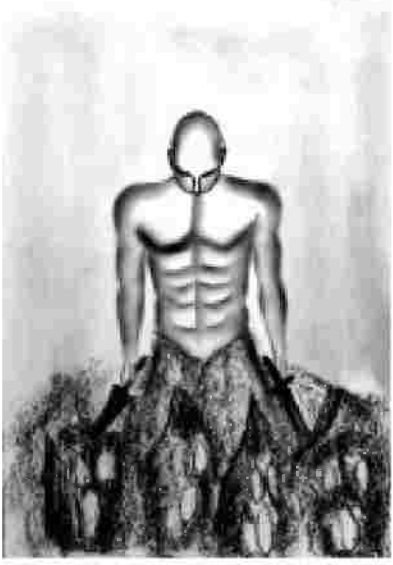

الاحتفالات لا تقتصر على حرق «الموركسيون» بل تمتدّ في كثيرٍ من الأحيان لحرق اليهود والهراطقة والمرتدّين وما نالته أيديهم مِمَن اختلف عنهم. الغاية هي المجتمع المتجانس.

«ألفريدو! ألفريدو!»... ينادي صبيٌّ صغير السِّن.

يتوقف ألفريدو في مكانه، ويتابع إخوته مسيرهم.

«اجابيتو صديقي، كيف حالك؟»... قال زيدون.

«أنا بخير. ننتظرك اليوم كالعادة. نريد أن نلعب بالقرب من النّهر»... قال اجابيتو لزيدون الّذي لا يستطيع اليوم أن يخرج من المنزل لأنّ عليه التحضير جيّدًا والتدرّب لأداء الموشّح. يريد أن يجعل أبيه فخورًا به.

«لا أعلم إن كنت سأستطيع أن آتي اليوم. عليّ أن أساعد أبي في أعمل المنزل»... قال زيدون لصديقه.

«أعمال المنزل القذرة! هيا يا هذا! فقط اجعل أخاك أدان يقوم بها. اضربه لو أبى وتعال!» قال اجابيتو ممتعضًا وناظرًا باتجاه الأخ الأصغر، محمّد.

«حسنًا، سأرى ما أستطيع فعله»... قال زيدون، ثم لحق بأخويه في طريقهم إلى المنزل.

«السّلام عليكم»... قال محمّد وهو أول الواصلين لباب البيت.

الأب كان في استقبالهم، منهمكٌ بأعمال المنزل. زوجته توفت منذ بضع سنين أثناء ولادتها لابنهم الأصغر محمّد، ومنذ ذاك الوقت،

على عاتق الأب والأخ الأكبر عبد الله تقع كلّ الواجبات المنزلية، بالإضافة إلى أنّ عليه تأمين قوتهم اليومي من عمله في حقلٍ صغير بجانب بيته.

«وعليكم السّلام أحبتي. لقد حضَّرت لكم طعامكم المفضّل، الدجاج والمرق. سيكون الإفطار اليوم مميّزًا»... قال الأب لأولاده الثّلاثة.

«شكرًا لك أبي»... قال الثّلاثة أولادٍ فرحين بتلك المفاجأة السّارة. بالكاد يستطيع الأب تأمين كل المصاريف المادّية واحتياجات أولاده، لكنّه دائمًا ما يجعل للأيّام المميّزة ولائم خاصّة. يريد أن ترتبط هذه الأيّام بالفرح والبهجة في قلوب أبناءه. هي طريقته كي لا ينسى أولاده الإرث العظيم لحضارةٍ عظيمةٍ كانت هنا بالأمس.

«أبي، أريد أن أذهب قليلًا أتمرن على الموّشح الّذي سأؤدّيه اليّوم»... قال زيدون لأبيه.

«أبي، أريد أن ارافق زيدون! أرجوك اسمح لي بالذهاب معه»... قال محمّد.

«ممم. حسنًا ولكن لا تبتعدا كثيرًا. لم يعد هناك الكثير من الوقت حتى موعد المغرب»... قال الأب.

«حسنًا أبي، سنكون هنا على الوقت تمامًا إن شاء الله»... قال محمد.

زيدون متحمّسٌ جدًا لأداء الموّشح. لقد كان صعبًا على أبيهم في كلّ هذه الظرّوف أن يربيهم وحده، لكنّه آثر أن يهتمّ بهم أشدّ اهتمام، وأن يبذل كلّ ما يملك لأجل تعليمهم وتدريبهم على الحياة مستقبلًا. ولقد بذل جهدًا مُضاعفًا لتعليمهم لغتهم الأم وتقاليد شعبهم الشّامخ بالرّغم من المخاطرة الكبيرة عليه وعليهم.

كلّ ما يفعله أبوهم ما هو إلّا وفاءً لزوجته وذكراها. لقد بلغ لأمّ عياله مكانًا كبيرًا في قلبه. ملكت عليه دنياه كلّها وكانت له كلّ ما أراد، حلمًا ساحرًا، ولكنّه سرعان ما صحي من حلمه لواقعه الصّعب عند وفاتها. عندها فقط أحسّ بكلّ تلك الأزمات والعواصف الّتي تحيط به وأحسّ بما كانت تبذله شريكة عمره وتفني عمرها لأجله، تربيةٌ صالحةٌ ومستقبلٌ زاهرٌ وثلاث أولادٍ متمسّكين بهويّتهم الّتي يسعى من حولهم بكلّ جهدهم لسلخهم عنها، لا لشيءٍ غير أنّهم مختلفون عنهم والاختلاف هو جريمةٌ بشعةٌ في نظر الكثير من البشر على مرّ العصور. المجتمع في كلّ مكانٍ يكره الاختلاف، ولا يريد من عناصره إلّا أن يكونوا نسخًا متطابقةً لِمَا يراه ذلك المجتمع صوابًا أو حقيقةً بلا أدنى مساحة لأي اختلافٍ أوتنوع.

«هيا محمّد ليس لدينا متسعًا من الوقت. علينا أن ننتهي قبل غروب الشّمس»... قال زيدون لأخيه.

«أنا متحمّسٌ جدًا لهذا اليوم. أريد أن أراك وأنت تؤدّي الموّشح في المجلس»... قال محمّد وقد ارتسمت على محيّاه نظرات الأمل.

«لن أخيّب ظنّك. سترى! سيكون أبي فرحًا جدًا بي»... قال زيدون.

«وأمي أيضًا»... أجاب محمّد.

نظر زيدون إلى أخيه ثم ربّت على رأسه وقال له: «وأمّي أيضًا. وقريبًا جدًا سيحين دورك وستكون الأفضل».

تابع الطفلان مسيرهما إلى الحقل القريب بجانب النّهر حيث اعتادا أن يجلسا لأوقات التدريب. المكان هذا بعيدٌ نسبيًا عن مركز المدينة وقليلٌ من يمر بالقرب منه. بإمكان زيدون التدّرب هنا على إلقاء الموّشح.

التدرّب على الغناء في الهواء الطّلق جميلٌ جدًا بالنّسبة لزيدون. يُشعره ذلك بجمال اللّحن وإبداع الكلمات.

بالطّبع لا يوجد مَن يَعزِف له لحن الموسيقى هنا، ولكن من يحتاج لعزف موسيقى في نهار غرناطة الربيعيّ عند ضفة نهر الثّلج. الطّبيعة الخلّابة هنا تعزف نفسها. اخضرار الضفّتين، وصفاء ماء النّهر، وصوت العصافير في الشّجر الّذي يجاورهما في الغّابة القريبة، بالإضافة إلى نقاء روحيهما، لحنٌ سرمديٌ لا ينتهي. والموشّح يزيد الجلسة زهوًّا.

يبدأ زيدون بموشّحه فتتراقص ذرّات الماء في النّهر، ويفيض الحبّ من أرض غرناطة، وتعلو المشاعر الجميلة الّتي يكتنزها الغرباء لأرضهم، ويكمل زيدون:

«جـادك الغيـث إذا الغيـث همـى

يــا زمــان الــوصل بــالأَندلسِ
لـــم يكــن وصْلُــك إلاّ حُلُمًــا
فــي الكــرى أَو خُلسـة المختَلِسِ
«ها هم ها هم»... يصرخ مختلسًا في الغابة.

اجابيتو أحضر أصدقاءه ومضى يبحث عن زيدون ومحمّد. الآن وجدهم والآن ازدادت الأمور سوءًا. لقد سمع اجابيتو زيدون يتكلّم باللّغة العربية وينشد أيضًا. زيدون ومحمّد بلمح البصر يسرعان إلى الغابة. يريدان الاختباء من اجابيتو وأصحابه. لا يملكان أيّ مبرّرٍ لفعلتهم.

«ابحثوا عنهما جيّدًا»... قال اجابيتو.

اجابيتو يريد أن يمسك بهما. لقد غضب من أنّ زيدون لم يأتِ للعب معه فبدأ يبحث عنه في كلّ مكانٍ حتى وصل إليه في هذا الحقل القريب. الآن يريد أن يضع يديّه عليه. هو شرفٌ عظيمٌ في هذه المدينة أن تلقي القبض على متفوّهٌ باللغة العربية.

زيدون وأخاه نجحا في الهرب إلى الغابة، لكنّ الأخبار بدأت تنتشر في المدينة الحزينة.

«لا يحقّ لأيّ أحدٍ في هذه المدينة أن يتفوّه بتلك اللّغة الحقيرة»... قال رامون لابنه اجابيتو.

«أجل يا أبي ولهذا قدمت لأخبرك فورًا»... قال له ابنه.

رامون والد اجابيتو شديدٌ جدًا مع الغرباء. رغم أنّ أصوله مشتركة، فأمّه من هؤلاء الغرباء، إلا أنّه أشدّ من نقيي النّسل معهم. بحكم قرابته بالموروكسيون فقد كان باستطاعته الدخول في مجتمعهم ومعرفة الكثير عنهم.

هذه المعرفة أتاحت له التّقرب من وليّ نعمته حاكم المدينة. يستخبر عنهم بحكم ثقتهم فيه، ويخبر وليّ نعمته عن أدق التفاصيل فيأمر الحاكم جيشه الجرّار بنقض العهد القديم الّذي أبرمه ملك وملكة إسبانيا في قديم الزّمن لأهل هذه المدينة، ثمّ نقضاه لمئة أو لألف مرة.

لم يعد أحدٌ يحصي ذلك إلّا المعذبّين البائسين الّذين أجبروا على الانسلاخ عن ثقافتهم في سبيل البقاء على قيد الحياة، حياتهم الّتي تشبه الموت كثيرًا.

«اجابيتو، سنذهب سويًّا لبيت الزنادقة. سوف تحل نقمة الله عليهم لنفاقهم!»... قال رامون لابنه، وهو يبث في قلبه سمّ الكراهية والعنصرية البغيضة المنتنة.

رامون مضطربٌ أصلًا، فتنوّع أصله ولَّد فيه شعورًا بالدونية وسط أقرانه. يريد بأيّ وسيلة أن يثبت ولاءه للتّاج، فغدا أشدّ حقارةً على «الموروكسيين» من محاكم التفتيش نفسها.

ببساطة، فإن رامون هو جسّيس غرناطة وحقيرها. يستغلّ كل فرصةٍ من أجل أن يثبت حقارته يومًا بعد يوم. اللّيلة هي الفرصة الذهبيّة، يهيئ رامون شعلةً كبيرةً من النّار ويمضي برفقة قطيعٍ من الكارهين شطر البيت الآمن لحرقه على من فيه وتطهير المدينة الحزينة من المختلفين.

«زيدون! زيدون!»... ينادي عبد الله قرب النّهر. الأخبار وصلت إليهم بسرعة، فغادر مصطفى وأبوه بيتهم على وجه السّرعة آخذين

القليل من المال المدّخر في المنزل، وتوجّهوا إلى جانب النّهر للعثور على زيدون ومحمّد المختبئين في الغابة.

رغم أنّ الوقت تأخر إلّا أنّ عبد الله وأبوه يعلمان أنّ زيدون قادرٌ على الاعتناء بأخيه ونفسه في الغابة حتى وصولهما.

يُعَلّم الغرباء أبنائهم كيفية الاعتناء بأنفسهم عندما تسوء الأمور، والأمور دائمًا ما تسوء. كل عقدٍ أو عقدين تصدر محاكم التفتيش قراراتٍ تزيد الأمور سوءً وتُصَعّب عليهم البقاء في هذه الأرض. ولكنّ انتمائهم لها وحبّ الحفاظ على إرث أجدادهم يجعل «المورو‌كسيين» يتشبّثون أكثر بالأرض والإرث. يحاولون بكلّ القوّة الحفاظ على ما تبقّى.

«زيدون! زيدون!»... ينادي عبد الله في الغابة.

«نحن هنا»... همس صوتٌ فوق شجرةٍ في الظّلام الدّامس.

«ماذا تفعل فوق؟»... قال عبد الله.

«تسلّقنا الشجرة كي لا نبقى على الأرض في اللّيل. سننزل»... قال زيدون.

رويدًا، يساعد زيدون أخيه محمد للنّزول من فوق الشّجرة العالية. لقد كانت فكرةً ذكيّةً بالفعل. من الأفضل لهما البقاء على الشّجرة. يحميهم ذلك من الدواب المؤذية الّتي تكثر في الغابة ويتيح لهما النّظر من بعيد لرؤية أيّ أحدٍ قادم، فلن يدخل أحدٌ الغابة بغير شعلة نار.

«لقد قدم إلينا المدرّس أنطونيو»... قال عبد الله.

«المدّرس أنطونيو!»... قال زيدون.

«نعم. أتى ينذرنا من قدوم رامون وقَطِيعه. ثوانٍ قليلةٍ كانت بينهم. لقد أنقذ حياتنا. هو مع أبيك الآن قرب النّهر يبحثان عنكما. هيّا بسرعة. لا نريد التأخر عليهما. علينا الفرار فورًا من هنا»... قال عبد الله لأخيه.

على جانب النّهر يبحث أنطونيو عن تلميذيه. الأب متوجّسٌ منه. يخاف أن يغدر به أنطونيو، وأخذ الأولاد منه. هذه العادة أصلًا. كثيرٌ جدًا من الرّاحلين عن المدن الأندلسيّة أجبروا على التخلّي عن أولادهم لصالح محاكم التّفتيش.

المحاكم هذه كانت تأخذ الأولاد وتربيهم في أماكن خاصّة، تغسل عقولهم من الانتماء للثقافة «الموروكسيّة». لا أحد كان يستطيع الاعتراض على تلك القرارات. المحاكم مجهزةٌ بأعتى أدوات التعذيب الحديثة للضّغط على كلّ معترضٍ. رضخ كثير من «الموروكسيين» لتلك القرارات. محاولات الثّورة بائت بالفشل. كان الأفضل لهم الإيمان السّري والعيش كالغرباء، فالقابض على دينه كالقابض على الجمر.

«أبي. نحن هنا»... صرخ محمّد لأبيه.

أتى الأب على وجه السّرعة وقد سرّه لقاء ابنيه محمّد وزيدون. من الصّعب على الأب أن يخسرهما وقد خسر أمّهما من قبل. هو على أتمّ

الاستعداد للرحيل من هذه الأرض الحزينة إلى ما خلف البحر على أن يتكبّد خسارةً جديدةً في حياته.

«السيّد أنطونيو»... قال زيدون.

«أجل. تبدو متفاجئًا يا بنيّ»... قال أنطونيو.

«أجل. سيّدي. هل أنت من الغرباء؟»... سأل زيدون.

«من الغرباء»، أجاب أنطونيو مستغربًا وأكمل: «مَن هُم هؤلاء؟».

«نحن الغرباء»... أجاب عبد الله.

«لا أبنائي أنا لست من الغرباء. لا يلزمني القانون أن أكون من الغرباء حتى أكون إنسانًا!»... قال أنطونيو.

بدت علامات التعجّب واضحةً على محيّا الأب. لم يصدّق عينيّه حين أتى أنطونيو إليه في البداية عند الغروب يحذّره من قدوم محاكم التفتيش إلى منزله. كيف لقشتاليٍّ أن يعاون موروكسيّ؟ ولكنّه يحدث الآن.

«لقد قَدِمتُ لأحذّر أبيك بأنّ أمركم قد افتضح وأنّ رامون قادمٌ ليحرق بيتكم»... قال أنطونيو.

«نعم. هذا ما حدث. أشكرك جدًا سيّدي أنطونيو ولكنّ أنا لا أريد أن أسبّب لك أيّ إحراجٍ أو مشاكل في المستقبل»... قال الأب مُظهِرًا احترامه لنبالة أنطونيو.

«لا تقلق من هذا. لقد صعب عليّ الاستماع إلى جحافل الجاهلين المقاتلين باسم المسيح وهو بريءٌ منهم. يدعون إلى القتل وقد علّمهم الرّب أنّه المحبّة. يدعون إلى حرق أعدائهم وقد علّمهم الرّب أن إذا ضربك أحدهم على الخدّ الأيمن فليدر له الأيسر، واليوم غدوا هم الضّاربين المعتدين. لقد تجمّعوا باسم الرّب لقتل أطفالٍ وأبٍ بائس. الحاقدون، لا يعلمون أن ألله محبّة. ورأيت أنّه من الواجب عليّ كمؤمِنٍ أن أحذركم قبل فوات الأوان، فأتيت على وجه السّرعة لمنزلكم وقلت لك. الآن عليكم الرّحيل فورًا!»... قال أنطونيو وقد بدت عليه علامات التأثر.

«أعلم هذا. سوف نَبِيتُ في الغابة اليوم ثمّ نرحل غدًا مع شروق الشّمس»... قال الأب.

«لا تقلق سيّد أنطونيو. نحن نحفظ الغابة عن ظهر قلب»... قال زيدون في محاولةٍ لتطمين أنطونيو. وقبل أن ينتهي من تلك الكلمة، شاهدوا جمعًا غفيرًا من النّاس يأتون من أعلى النّهر. لقد تتبّعوا آثار الأب وابنه من بيتهم إلى هنا.

«عليكم الرّحيل فورًا»... قال أنطونيو.

«عبد الله، أنت وزيدون توّجها إلى الغرب، وسأتوجه مع محمّد إلى شرق الغابة. نلتقي عند الميناء وقت الشرّوق»... قال الأب.

«سيّد أنطونيو لو بإمكانك أن تؤخرّهم قليلًا. سيكون ذلك جيّدًا»... قال عبد الله.

«سأفعل ما في وسعي. لا تقلقوا. الآن انطلقوا بسرعة. لقد اقتربوا»... قال أنطونيو.

محمّد وأبوه سارعا للدّخول إلى الغابة والاختفاء في ظلمتها. عبد الله وزيدون توّجها إلى الجهة الأخرى، يريدان أن تضيع الآثار قليلًا فيصعب على تابعيهم إيجادهم، أو على الأقل إن ألقى الجمع القبض على اثنين منهم نجى الاثنان الباقيان.

«سيّد أنطونيو! ماذا تفعل هنا في هذا اللّيل الدّامس»... قال جسّيس غرناطة وحقيرها رامون.

«جئت إلى هنا عندما سمعت الجلبة وما حصل عند جانب النّهر. لقد اعتقدت أنّ الأولاد سيكونون هنا ولذا قدمت»... قال أنطونيو.

«وهل رأيت هؤلاء المهرطقين الأربعة»... سأل أحدهم.

«لقد وصلت هنا للتوّ وما زلت أبحث. أريد أن أحضرهما مجدّدًا إلى المدرسة لتعليمهما الصّواب»... قال أنطونيو.

«حسنًا فعلت سيّد أنطونيو. يجب علينا ذلك»... قال أحدهم قبل أن يقاطعه رامون صارخًا: «لا نريدهم وقد نمت فيهم البذرة الخبيثة. هؤلاء الوثنيون الأنجاس».

«ولكن سيّد رامون هؤلاء مجرّد أطفال. لولا أبيهم لكانوا مثلنا مسيحيين صادقين. ولذا أرى أن تحضروهم لي وسأتكفل بتعليمهم ونشأتهم»... قال أنطونيو لرامون.

«لا يمكنك ذلك! أنا أعرفهم جيّدًا. هم على استعداد أن يتلوّنوا مثل السّحالي على أن يتركوا تقاليد أجدادهم. الحلّ هو كما تقول تعاليم المحاكم»... قال رامون ثم نظر إلى الخلف حيث تجمّع بضع عشراتٍ من الرّجال وصرخ: «الموت الموت! الموت الموت!».

الرجال خلفه بدأوا يصرخون مثله. الأطفال أيضًا. يعلو ضجيجهم كثيرًا جانب النّهر ويصل إلى داخل الغابة حيث الأطفال وأبيهم.

«ستسوء الأمور الآن»... قال زيدون.

«علينا أن نكون حريصين جدًا»... أجاب عبد الله.

«أعرف كهفًا في الجانب الجنوبي من الغابة. بإمكاننا قضاء اللّيلة هناك. لكنّي شديد القلق على والدي ومحمّد»... قال زيدون.

«هو قدرنا. لا داعي للخوف. اسمع زيدون، الوضع خطير، وهذا شيءٌ واقعي، لكنّ الخوف نصنعه نحن في أنفسنا. ثِق بنفسك وتوكل على الله. ما أسوأ ما يمكن أن يحدث؟ يقتلوننا! الموت أرحم من أن أعود لتلك المدينة الحزينة كي ألبس جلدًا ليس جلدي أو أتكلّم لِسانًا ليس لساني»... قال عبد الله.

«أعلم هذا. أنا لست خائفًا. أنا قلقٌ على أبي ومحمّد»... قال زيدون.

«القلق طبيعيّ. الآن يجب أن تكون بكامل تركيزك من أجل الوصول إلى الكهف الّذي أخبرتني عنه، وعند شروق الشّمس نتجه للميناء كما هي الخطّة»... قال عبد الله.

يتابع عبد الله وزيدون مسيرهما في الغابة. زيدون فَطِنٌ جدًّا. الغابة كانت منذ نعومة أظفاره ملعبه الخلفي. يخرج هناك كلّما أراد أن يلعب وأصحابه. الغابة شاسعةٌ وقد كان بإمكان الأولاد قضاء نهارٍ كامل دون مللٍ فيها. يستكشفون كل زاويةٍ فيها. اليوم عرف زيدون قيمة استكشافه. الكهف الّذي ذكره لعبد الله لا يبعد كثيرًا وسيبقيه وأخيه آمنين عن أعين من يلاحقهما حتى شروق الشّمس.

«الكهف لا يبعد كثيرًا»... قال زيدون.

«أحسّ بأنّني أشبه أصحاب الكهف. تعرفهم أليس كذلك؟»... سأل عبد الله أخيه.

«تقصد هؤلاء الفتية الّذين فرّوا من مدينتهم لكهفٍ في الجبل»... أجاب زيدون.

«نعم هؤلاء. إنّهم يشبهوننا كثيرًا»... قال عبد الله.

«كيف ذلك؟»... سأل زيدون.

«أخبرني أبي عن القصّة أكثر من مرّة. هؤلاء الفِتية هربوا من مدينتهم إلى ذلك الكهف كي يتّقوا شرّ الملك الظّالم الّذي يجبر الجميع على التّحول لدينه»... قال عبد الله.

«أكان الملك مسيحيًا؟»... قال زيدون.

ابتسم عبد الله لسؤاله ثمّ نظر إليه وقال: «زيدون، الفتية كانوا هم أتباع النّاصري. الملك لم يكن مسيحيًا بل كان وثنيًا يريد أن يصدّهم عن دينهم. الفتية هربوا من هذا الملك للكهف للنجاة بدينهم، وقد حصلت المعجزة وقت ذاك. لقد ناموا لأكثر من ثلاثمئة سنة».

«ثلاثمئة وتسعًا»... قال زيدون ثم غمز أخيه يريد أن يظهر له معرفته ببعض التفاصيل في القصّة.

«تخيّل لو أنّنا ننام في الكهف مثلهم»... قال عبد الله ثمّ نظر في السّماء.

«ننام لمئتي سنة، أو ثلاث مئة؟»... قال زيدون.

«نعم، نستيقظ وقد كفّ هؤلاء الجهلة أيديهم عنّا وأصبح كلّ النّاس كأبي أو حتّى كأنطونيو»... أجاب عبد الله ثم تابع: «سيبقى هذا حلمًا».

«أنظر هناك. الكهف!»... قال زيدون.

«ليس بعيدًا»... قال عبد الله.

«هيا لنسرع بالدّخول»... قال زيدون.

«الدخول إلى أين؟»... قال صوتٌ من خلف شجرةٍ جانب الكهف.

«لقد عرفت أنّكم ستأتون إلى هنا!»... قال الصّوت مجدّدًا. وما هي إلّا ثوانٍ حتى أشعل بعض الرجال النّار في قناديلهم وبانت وجوههم. لقد كان اجابيتو المتكلّم.

اجابيتو أيضًا يعرف مكان هذا الكهف وقد أخبر أباه عنه. عرف رامون أنّهم سيأتون للاختباء فيه. هذا ما يقوله المنطق.

«أين أبيك وأخيك يا ميغل؟»... قال رامون لعبد الله.

«أنا لست ميغل! أنا عبد الله ابن عبد الله»... أجاب عبد الله.

«أيّها الحقير! أريتم! هؤلاء القذرون! الوثنيّون! الوضعاء! يجب علينا التخلّص منهم جميعًا من أجل أن تحلّ علينا بركة الرّب! يجب أن نقتلهم!»... قال رامون للجمع معه فتعالت صيحاتهم. اجابيتو تناول حجرةً صغيرةً عن الأرض ثم رماها باتجاه صديقه السّابق زيدون.

«ارجموهم!»... قال رامون.

«اقتلوهم فورًا»... صرخ أحدهم ليعلو الهرج ولتتساقط الأحجار على الطفلين الّذيّن يبدآن بالركض بعيدًا عنهم. القطيع يلاحقونهم. لا مكان للفرار الآن.

«تمهلّوا! تمهلّوا»... صرخ أنطونيو ثم وقف أمام الطفلين في درب الجميع الثائرين كالمجانين لقتل الطّفلين، وقال: «لا تقتلوهما. إنّهم مجرد طفلين!».

«سيّد أنطونيو، أرى أنّ هؤلاء الشياطين قد مسّوك بسوء. إنها تعاليم المحاكم. إنها تعاليم الله!»... قال رامون.

«ويحك! أي تعاليم هذه؟ ألم تسمع قول المسيح حين رجموا تلك المرأة؟ ألم يقل للجمع: من كان بلا خطيئةٍ فليرجمها بحجر؟»... سأل أنطونيو.

«سيّد أنطونيو. ابتعد من طريقنا! المحاكم أدرى بتعاليم الرّب منك!»... قال رامون، الجسّيس الحقير.

«لن أبتعد!» أجاب أنطونيو بكلّ ثقة. عند ذلك هدأت الأصوات قليلًا، الطفلان خلف أنطونيو لا يبدوان بخير. لقد أصابت حجرةٌ كبيرةٌ رأس زيدون. عبد الله بالكاد يقدر على أن يقف على رجليه.

«إن لم تبتعد فستنال جزاءهما!»... قال رامون.

«أتهدّدني أيها الصّعلوك؟»... قال أنطونيو، ثم وثب على رامون ورماه أرضًا.

«من منكم يجرؤ على أن يعصي الله والملك والمحاكم!»... قال رامون.

يتمتم الجميع خلفهما.

فيصرخ رامون الملقى على الأرض فيهم: «لقد هرطق أنطونيو! اقتلوه! اقتلوه!»

وما يكاد أن ينتهي رامون من كلامه، حتى يعود الصّراخ وتحلّ الهمجية على قطيع رامون. فيركضون باتجاه أنطونيو يضربونه وهو الشّجاع يدافع عن نفسه بكل قدرته.

زيدون ينزف كثيرًا من الدماء. عبد الله ينظر إليه وينظر إلى أنطونيو الّذي يصارع بكلّ قوة.

«زيدون انظر إليّ. أمسك يدي»... يقول عبد الله ثمّ يبتسم لأخيه.

«اه.. لا تقلق عبد الله. المكان يبدو جميلًا. سيكون لديّ متّسعٌ من الوقت للقاء أمّي»... قال زيدون بصعوبة.

أمسك عبد الله بيد أخيه وشدَّ عليها، وعرف أنّ أخيه ينازع الرّوح، فتبسّم مجدّدًا وقال: «بوركت الرّوح الصّابرة، وبورك أهل المدينة الحزينة، وبورك أتباع النّبي الأميّ الرحمة الخالصة. الرّحمة لروحك ولروح أجدادك الأنقياء. المُلتقى الجنّة، المُلتقى الجنّة. فلتصبحك الملائكة هناك أيّها الطّاهر، وليمسك بيدك أبُ الأمم، أبُ الأنبياء جميعًا، إسحاق وإسماعيل ويعقوب وعيسى ومحمّد. ليصحبك خليل الرحمن وروحك النّقية إلى جنّة السّلام».

عندها تبسَّم زيدون ونظر في وجه أخيه وقال: «أنا زيدون. أنا لست ألفريدو»... ثمّ سقطت اليّد وسقطت أحجارٌ أخرى على عبد الله فأردته، وسقط أنطوينو. ثمّ...

«أنا هنا»... قال زيدون ناظِرًا حوله.

«أين الجدّ؟»... قالت شيرا.

«لقد كان هنا من ثانية. كيف اختفى؟»... تساءل بافل.

«أنظروا هناك»... قالت شيرا وأشارت إلى ناحِية النّهر.

«من هذا؟»... سأل زيدون.

«لا أدري. لا أدري»... أجاب بافل وشيرا.

«أصدقائي. أصدقائي»... صرخ الطّفل جانب النّهر.

ارتاب الأطفال قليلًا، ثمّ ما هي إلا ثوانٍ قليلة حتّى بدأ أطفالٌ كثيرون يتوافدون من كل ناحية. الأطفال تظهر عليهم السّعادة، تظهر في عيونهم. أشكالهم مختلفة لكنّهم يبدون كالإخوة. شيرا وبافل ينظران إلى جانب النّهر، إلى الأطفال جميعًا. زيدون كان أشجع منهما، بدأ يمشي ويلوّح بيده.

«أنا زيدون. أنا لست ألفريدو»... قال لهم.

اقترب منه أحدهم ثمّ مَدَّ يده يصافحه وقال: «أنا بان، أتيت من ببجين»... قال أحدهم تظهر عليه الملامح الصّينية، ثمّ تابع: «مرحبًا بك. أتريد أن نلعب سويًا بجوار النّهر؟».

«بالتأكيد»... أجاب زيدون. ثم نظر إلى شيرا وبافل وقال: «تعالوا هنا لنعلب. هذا صديقٌ لنا».

شيرا وبافل يأتيان على استحياء، وعند وصولهما ينظران حولهما. الأطفال يأتون جماعاتٍ ويزداد عدد القادمين كلّ لحظة.

«أنا مونيكا. أتيت من الإسكندرية»... قالت طفلة جميلة لهم.

«أنا ديار، من جبل سنجار»... قال ثانٍ.

«أنا كرو، من بلاد الشّمس المشرقة»... قال آخر.

«أنا باميلا، أنا موتمبو، أنا ماهر، أنا كريستين، أنا مادهوري، أنا فرانسوا، أنا ألفريدو، أنا اتزيلي، أنا إفرات».

يظهرون من كلّ مكانٍ، كنجومٍ في سماء يومٍ ربيعيّ بعد غيوم، كأزهارٍ في حقل رَوَته دماءٌ طاهرةٌ لأجل لا شيء، كقطرات ماءٍ تنهمر على الحقل فَتُطَهِّر ترابه من خطايا البشريّة ودنسها، كحبّات التّراب النقيّة يتقاتلون عليها فتزهق الرّوح ويسفك الدّم ويغتصب الجسد ثم ينتشي مجرمٌ.

الأطفال يشكّلون دائرة كبيرة، فيمسكون بأيدي بعضهم البعض. تسقط من عين كلّ واحدٍ منهم دمعة، ومع سقوط الدّمعة يسقط الألم الكامن في قلوبهم النّقية.

«لا حُزْن اليوم. لا أسَى اليوم. لا بُغْض اليوم. لا كُرْه اليوم. لا قَتْل اليوم. لا موت اليوم»... ينادي صوتٌ عظيمٌ في السّماء. يبتسم الأطفال جميعًا وينظرون إلى النّور المشرق عليهم، يشدّون أيديهم الواحد بالآخر ويحنون رؤوسهم ثمّ يرفعونها ويقولون بصوتٍ واحد: «دخلناها بسلامٍ آمنين».

رقم الإيداع: 9515 / 2019

الترقيم الدولي: 9 – 311 – 838 – 977 – 978